



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي



المركز الجامعي أحمد بن يحيى الونشريسي تيسمسيلت

قسم اللغة والأدب العربيّ

مذكرة مقدّمة ضمن متطلبات نيل شهادة التخرّج ماستر موسومة بـ:

دراسة كتاب:

"الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي"

يوسف خليف

إشراف:

د/ مرسي رشيد

إعداد الطّالِب :

– بودينة خالد

أعضاء لجنة المناقشة

رئيسا	د/ دردار بشير
مشرفا ومقررا	د/ مرسي رشيد
مناقشا	د/ تواتي خالد

الموسم الجامعيّ: 1440 - 1441هـ / 2019 - 2020م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة شكر و عرفان

الحمد لله الذي وفقنا لإتمام هذا العمل
و عملاً بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[من له يشكر الناس له يشكر الله]

فالشكر موصول إلى الأستاذ المشرف "مرسي رشيد" الذي رافقتنا خلال فترة
إعداد هذه المذكرة ولم يبخل علينا بنصح أو توجيه ...
ولكل من قدم لي يد العون في إتمام هذا العمل ولو بكلمة طيبة لهم مني كل
الشكر والتقدير.

إهداء.

أهدي ثمرة عملي هذا إلى الوالدين الكريمين أطال الله في عمرهما

إلى جميع أصدقائي في التخصص

إلى جميع أساتذتي في معهد الآداب واللغات

وإلى كل من ساهم من قريب أو بعيد في اتمام هذا البحث

خالد

بطاقة فنية للكتاب :

المؤلف : يوسف خليف.

العنوان : الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي.

الناشر : دار المعارف: 1119 كورنيش النيل - القاهرة ط . 2 - سنة : 1966.

حجم الكتاب: كبير.

عدد صفحات الكتاب : 364.

حَقِّقْ حَقِّقْ

إن دراسة العصر الجاهلي من كل جوانبه أمر في غاية الصعوبة وذلك بسبب الغموض الذي يكتنفه وهذا لعدة أسباب منها أن هذا العصر يمتد ما قبل ظهور الإسلام إلى زمن غير معروف ذلك الزمن الغامض بسبب أن العرب لم يعرفوا الكتابة فقد كانوا أمة أمية ولذلك لم يدونوا تاريخ تلك الفترة لأنهم لم يعرفوا العلوم المختلفة بسبب بداوتهم الضاربة في أعماق الصحراء فأكثر تلك الفترات قبل البعثة الإسلامية مجهولة والمائل بين يدينا مشكوك فيه لكثرة الأساطير والخرافات التي دارت حوله فلم يعرف العرب التدوين العلمي وما لحقنا من تلك الفترة ما هو إلا كم كبير من الشعر هذا الأخير الذي كان يعد ديوان العرب - حسب قولهم - ولكنه هو نفسه مشكوك فيه وغامض إلى حد كبير فقد نقلته الرواية غير العلمية ودخله التحريف والانتحال وأكثره ضاع ومن هنا نشأت فكرة الشك في صحته لذلك لا يمكن دراسة كل جوانبه لما فيه من سعة خاصة جانب الشعر.

وعند الحديث عن الشعر يقفز إلى أذهاننا فجأة موضوع شعر الصعاليك لما له من اختلاف كبير عن بقية الشعر الجاهلي وهذا هو السبب الذي دفعنا إلى اختيار هذا الكتاب الملهم بجميع جوانب حياة الشعراء الصعاليك إذ حاول فيه صاحبه الإمام بموضوع الصعلكة وما أنتجت من حياة اجتماعية وآراء سياسية ونصوص شعرية فقسم كتابه إلى بابين الأول فيه ثلاث فصول درس فيها الحياة الاجتماعية والسياسية والإقتصادية وجغرافيا الجزيرة العربية وكيف أدت هذه الجوانب إلى الصعلكة، أما في الباب الثاني فجعله أربعة فصول درس فيها الظواهر الفنية في شعر الصعاليك وقد جمع الكاتب بين

منهجين التاريخي والوصفي في أسلوب عميق من ناحية الدراسة بسيط ومباشر من ناحية اللغة والخطاب معتمدا في ذلك على أمانات كتب الأدب العربي وتاريخ الأدب العربي والدواوين الشعرية الكبرى وكذلك المصادر الأجنبية الكبرى التي عنيت بدراسة الأدب العربي وخاصة الشعر الجاهلي. وقد واجهتنا بعض الصعوبات في هذا البحث منها: قلة أو ندرة المصادر والمراجع التي تناولت دراسة نقدية لشعر الصعاليك.

وفي الأخير نشكر الأستاذ المشرف السيد رشيد مرسي الذي وجهنا في إنجاز هذا البحث وكل من قدم لنا يد المساعدة من قريب أو من بعيد.

مدخل

مدخل :

1- يتناول الكتاب الشعراء الصعاليك من كافة الجوانب في دراسة شاملة بدأت بتعريف الصعلكة لغة واصطلاحاً وتفسيرها جغرافياً واجتماعياً واقتصادياً في الباب الأول متطرقاً إلى أهمية العامل الجغرافي في نشأة هذه الظاهرة وتوجيهها، ونظرة هؤلاء الشعراء إلى القبيلة نظرة خالفت التقاليد آنذاك بخروجهم عن أعراف المجتمع الجاهلي، وعدم شعورهم بالإنتماء إلى القبيلة والمجتمع القبلي من عدة نواحي خاصة الرضوخ للزعامة القبلية والتفاوت الطبقي فيها الذي أنتجه الجانب الإقتصادي أو المالي وظهور الأغنياء والفقراء والأسياد والتابعين لهم، لينتقل الكاتب في الباب الثاني إلى دراسة الإنتاج الأدبي للشعراء الصعاليك من حيث مادته ومصادره وموضوعاته، متطرقاً إلى الظواهر الفنية بالدراسة والتحليل ليخلص في الأخير إلى دراسة شاعرين صعلوكين متميزين هما عروة بن الورد باعتباره سيد قبيلة وغنيا والشنفرى باعتباره من الموالي الفقراء.

2- من خلال عنوان الكتاب " الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي " يظهر لنا مدى اتساع البحث وإلهامه بهؤلاء لأن العنوان مفتوح على الشعراء الصعاليك وليس دراسة في شعرهم فقط ومنه نستنتج أن الكاتب - من خلال العنوان - ألم بكافة نواحي حياة هؤلاء الشعراء، الحياة الإجتماعية والإقتصادية والجغرافية وإنتاجهم الأدبي الذي عملت هذه النواحي على صقله وإخراجه.

- مقدمة الكتاب الذي بين أيدينا قصيرة في صفحتين ونصف عكس مقدمة الطبعة الأولى التي طالت إلى 8 صفحات ، وقد أوردهما الكاتب في هذه الطبعة، والسبب في قصر مقدمة الطبعة الثانية

أن نتائج البحث لم تأت بالجديد بعد السنوات التي مرت بين الطبعتين إذ يقول يوسف خليف: "لاتكاد هذه الطبعة الجديدة تختلف عن الطبعة السابقة في شيء أساسي، فلم أدخل عليها إلا تعديلات يسيرة لبعض العبارات"¹ وذلك لأن الكاتب لم يجد السيء الجديد بخصوص هذا الموضوع طوال تلك السنوات إذ يؤكد قوله: "وعلى الرغم من أن صلتى بموضوع الصعاليك لم تنقطع طوال هذه السنين التي مرت على ظهور الكتاب، فإن النتائج لم تتغير"².

- ولقصر مقدمة الطبعة الثانية وعدم إلهانها بالموضوع إعتدنا في هذا البحث على مقدمة الطبعة الأولى لإحاطتها بجوانب الكتاب وفصوله.

(3)- ينتمي الكتاب إلى حقل الدراسات التاريخية (تاريخ الأدب) في الباب الأول بكل فصوله، والباب الثاني في فصليه الأول والثاني أما الفصل الثالث والرابع من الباب الثاني فيمكن إدراجهما في حقل النقد الأدبي.

- ما قام به الكاتب في هذا المؤلف حمل جديد بالنسبة لحقل الدراسات الأدبية لأن البحث في هذا الموضوع كان بحثاً جافاً اقتصر على رواية أشعار الصعاليك وتدوينها فقط ، ولم تدرس هذه الظاهرة دراسة تحليلية معمقة من قبل كما فعل يوسف خليف، ولعل هذه الدراسة تعد - على حسب اطلاعنا- أول دراسة شاملة تناولت الموضوع بالنقد والتحليل لجوانب مختلفة من ظاهرة الصعلكة خاصة في منتصف القرن الماضي، فالبحوث التي كانت منذ عصر التدوين في أدبنا العربي كانت تعنى

¹ يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي - دار المعارف 1119 كورنيش النيل- القاهرة- ط 2- 1966 ص 7.

² المصدر نفسه: ص 7.

بالشعراء عموماً والفترة الجاهلية، في دواوين منفردة على الصعاليك، ولكن الكاتب جعلها في كتاب واحد حاول فيه تحليل واقع المجتمع الجاهلي وخصائصه والظروف التي نشأت في خلالها ظاهرة الصعلكة.

4- يبين الكاتب في هذه النقطة عن دواعي بحثه في موضوع الصعاليك فيقول: "قفز هذا الموضوع إلى ذهني لأنه موضوع لم يعن به الباحثون من قبل، ولم يقفوا عنده، ولم يشغلوا أنفسهم به"¹ وهذا على حد تعبير الكاتب موضوع جديد في الدراسة إذ كان سياقاً له، أطل فيه البحث دون غيره ممن سبقوه، وذلك من أجل تحديده بدقة وتمثيل ظاهرة متميزة من ظواهر العصر الجاهلي، هذه الظاهرة التي حام حولها الكثيرون ولم يدخلها أحد، يقول يوسف خليف: "وفي أذهان الناس عن الصعاليك صورة غامضة غير مشرفة... إلخ"² كغموض حياة أولئك الصعاليك، لأنهم آثروا العيش بعيداً عن الأهل متشردين بين الصحاري، فأراد الكاتب أن يجلي عنها الظلمة من خلال تعمقه في البحث والكشف عن أسرارها حيث يقول: "ومهمتي في هذا البحث أن أحاول تجلية هذه الظلال، وإزاحة هذه السحب"³؛ لينكشف الغطاء عنها وتبدو الصورة واضحة على حقيقتها.

معتمداً في ذلك على المطالعة والبحث الشخصي لسنوات من الدراسة، غير متأثر برأي باحث آخر من أجل الوصول إلى نتائج تقارب الحقيقة.

¹ المصدر السابق: ص 14.

² المصدر نفسه: ص 13.

³ المصدر نفسه: ص 13.

بالبحث في المصادر الأساس لهذا الموضوع حيث يقول: "... فآثرت في أول الأمر أن لا أقرأ شيئاً عنه لأحد من الباحثين، ومضيت إلى أخبار الصعاليك وأشعارهم في مصادرها الأصلية الأولى"¹، وهذا ما يدل أن الكاتب حريص على أخذ أخبار الصعاليك من المصادر، من أجل تكوين كم معرفي يفني البحث بالمعلومات ثم النظر في أعمال الباحثين في هذا الموضوع ولكن الكاتب قد فوجئ بندرة البحث في هذا الموضوع بل وربما انعدامها إذ يقول: "فراعني أنني لم أجد أحدا قبلي قد عني بدراسته دراسة شاملة متخصصة"².

- وقد بدأ الكاتب ملتزماً بالأمانة العلمية وأخذ معلوماته من أمهات الكتب والمصادر التي تؤرخ ودونت أخبار الصعاليك، والمخطوطات المتناثرة هنا وهناك بين مكتباتنا ومكتبات أوروبا، إذ كان حريصاً على جمع معلومات من المصادر الأساسية.

(5)- يعد هذا الكتاب قيمة علمية كبيرة لأنه أول كتاب متخصص عني بدراسة ظاهرة الصعلكة من كل جوانبها، ودراسة أشعارها الصعاليك دراسة فنية، أبرع فيها الكاتب، وليست مجرد رصف للمعلومات لكتب الأخبار والتاريخ، بحيث اعتمد على أمهات الكتب والدواوين والمخطوطات من أجل جمع المادة العلمية من أخبار الصعاليك وأشعارهم، فمنها كتب متخصصة كدواوين الشعراء الصعاليك ومنها عامة سواء درست العصر الجاهلي أو تاريخ الأدب العربي عامة.

¹ المصدر السابق: ص 14.

² المصدر نفسه: ص 14.

الفصل الأول

الشعراء الصعاليك ونشأة

الصعلكة

تقديم وعرض:

1- مناقشة إشكالية الكتاب:

- تطرق الكاتب في كتابه إلى إشكالية مفهوم الصعلكة وما يتبعها من ظواهر وشعراء ونتاج أدبي جعلته هذه الظاهرة متميزا عن النتاج الأدبي الموازية لها أو الذي يدور خارجها وفصل فيها بتعريفها وتعريف الصعلوك خارج دائرة الصعلكة ثم داخلها لإجراء مقارنة من أجل معرفة إمكانية جواز تسمية الشاعر داخل هذه الدائرة بالصعلوك، فأفرد فصلا كاملا للتعريف بهذه الظاهرة مستشهدا بنصوص أدبية وردت فيها ولكن هذه النصوص لم تف بالغرض، فكان على الكاتب كما قال: "فكان لابد من المضي إلى المجتمع الجاهلي أتلمس في أخبار صعاليكه وأشعارهم جوانبها المختلفة"¹ وذلك من أجل استخراج الأسباب والدوافع التي أدت بهؤلاء الشعراء إلى التصعلك والخروج عن نظام القبيلة وتقاليد المجتمع الجاهلي.

- ثم مضى الكاتب إلى البحث عن سر نشأة هذه الظاهرة والعوامل التي أدت إلى ظهورها، فكان عليه أن يفسرها تفسيرا نفسيا اجتماعيا واقتصاديا يساعده على فهمها وسبب تكوينها وتطورها.

¹ المصدر نفسه: ص15.

(2) - دراسة فصول الكتاب:

الصعلكة في المفهوم اللغوي:

- تطرق الكاتب في الفصل الأول من الباب الأول إلى مفهوم الصعلكة في اللغة وفي الإستعمال الأدبي، وعند المجتمع الجاهلي، وهذا من أجل الوصول إلى المفهوم الدقيق لها أو المعنى الإصطلاحي، حتى يقارنه بمفهوم الصعاليك، وهل يناسب هذا المفهوم ما كان شائعا حول مصطلح الصعلكة، فقد جاء في لسان العرب لابن منظور أن الصعلوك: الفقير الذي لامال له، حيث يقول حاتم الطائي:

غنيا زمانا بالتصعلك والغنى *** فكلا سقانا بكأسيهما الدهر

وتصعلكت الإبل خرجت أوبارها وانجردت وقيل تصعلكت الإبل إذا دقت قوائمها من السمن والتصعلك: الفقر، وصعلك الثريدة: جعل لها رأسا ودفعه¹.

- ومن هذا يرى يوسف خليف أن هذه المعاني تشترك كلها في النقص والإضرار ولذلك فإن الصعلوك هو الذي نقص ماله حتى أثر فيه فصار ضعيفا وتجرد من الحياة ولهذا يقول الكاتب: "وهو يتصعلك: أي يفتقر كأنما تجرد من ماله، وبدا ضامرا بين الناس"².

¹ المصدر السابق: ص20.

² المصدر نفسه: ص22.

- ومن هذا نستنتج أن الصعلكة في مفهومها اللغوي كما أشار الكاتب هي: "... فالصعلكة إذن

- في مفهومها اللغوي- الفقر الذي يجرد الإنسان من ماله ويظهر ضامرا بين الناس"¹.

- ولكن الكاتب يذهب بعيدا في هذا المفهوم باعتماده على قول الأزهري في تعريف الصعلوك

حيث يقول هذا الأخير عن الصعلوك زيادة على قول ابن منظور: "ولا اعتماد"²، أي لاشيء لهذا

الفقير كي يتكئ عليه في حياته ولا معين، ومنه نستنتج أن هؤلاء الصعاليك جعلوا الغزو والصحراء

معينة لهم في حياتهم في غياب المعين في القبيلة.

ولكن هذا التعريف اللغوي للكلمة لا يفي بالغرض ما لم نستطع أن نحدد أديبا أو اصطلاحيا في

تلك الفترة وهذا ما يذهب إليه الكاتب من أجل فهمها وتحديد العلاقة بينهما وبين المفهوم

النحوي إذ يتساءل قائلا: "... إلى أي مدى يطابق هذا الإستعمال معناها اللغوي كما سجله

علماء اللغة أم يختلف عنه؟"³.

- في الإستعمال الأدبي:

- لها أوجه كثيرة أطال الكاتب الشرح فيها محاول أن يختصر قدر الإمكان: بداية مع قول عمرو

بن بركة بعد إثارة أحدهم على إبله يقول:

¹ المصدر نفسه: ص 23.

² المصدر السابق: ص 22.

³ المصدر نفسه: ص 23.

تقول سليمي: لاتعرض لتلفة *** وليلك عن ليل الصعاليك نائم

وكيف ينام الليل من جل ماله *** حسام كلون الملح أبيض صارم

ألم تعلمي أن الصعاليك نومهم *** قليل إذا نام الخلي السالم¹

- فمن خلال الأبيات لا يبدو أن الصعلوك هو ذلك الفقير الذي يرضى بفقره، وإنما هو ذلك المشاغب الذي امتهن الإغارة حين ينام المترفون وبهذا فالكلمة قد خرجت من دائرة الفقر إلى الغزو والسلب، وما يؤكد هذا خبر من أخبار امرئ القيس عندما غزا بني أسد في ثأر أبيه أنه أخذ مع الصعاليك لأجل الغزو²، ومن غير المعقول أن يأخذ امرؤ القيس الفقراء معه وإنما يأخذ من هم أهل للغزو.

- وفي هذا إشارة إلى فئة معينة من المجتمع يمتهنون الغزو في ظاهرة اجتماعية واقتصادية كانت منتشرة آنذاك، ويدعمنا هنا قول آخر في قصة النعمان من المنذر مع كسرى حين نصفه أحد من بني شيبان قائلاً له: " فامض إلى صاحبك فيما أن يصفح عنك قعدت ملكا عزيزا، وإما أصابك فالموت خير لكمن أن يتغلب عليك صعاليك العرب"³.

¹ المصدر السابق: ص24.

² المصدر نفسه: ص24.

³ المصدر نفسه: ص26.

- وهذه إشارة من هذا الرجل إلى مجموعة من الناس قطاع طرق حذر منهم النعمان كي لا يأخذوا ماله، ولا بد أن هذا السيد مدرك لما يقوله وعارف بأمور الصحراء وما يدور فيها، وهذان الخبران يؤكدان خروج معنى الصعلكة عن الفقر، والملاحظ أن علماء اللغة يحومون حول المصطلح في معناه الجاف ولا يدخلون في صلب المجتمع من أجل فهمه.

- في المجتمع الجاهلي:

يكثر الحديث عن الفقر والجوع في أخبار الصعاليك فهذا السليك يقول:

ومانلتها حتى تصعلكت حقبة*** وكدت لأسباب المنية أعرف

وحتى رأيت الجوع بالصيف ضربي*** إذا قمت تغشا في طلال فأسدف

ويقول عروة:

أقيموا بني لبني صدور ركابكم*** فإن منايا القوم خير من الهزل

وكذلك الشنفرى حين يقول:

أديم مطال الجوع حتى أميته*** وأضرب عنه الذكر صفحا فأذهل

وأستف ترب الأرض كي لا يرى له*** علي من الطول امرؤ متطول

والظاهر أن الشعراء الصعاليك كانوا يعانون الفقر والجوع، ولكن الأمر هنا يدعو إلى الوقوف عليه فليس معقولا أن يخاطر الإنسان بحياته وحيدا وسط الصحراء ويهجر قومه فالموت بين الأهل أهون، ولكن هناك دافعا آخر دعا إلى الخروج عن القبيلة وهو الظلم، أو المعاناة النفسية والتمييز الاجتماعي لهؤلاء في قبائلهم، كما حدث للشنفرى، ولكن هنا يجب أن نتقف عند عروة، فقد كان سيدا ابن سيد، فالظاهر أنه لم يقبل ذلك التفاوت بين أفراد القبيلة فالشنفرى شعر بالاحتقار فخرج، وعروة رفض هذا الاحتقار فخرج، وهنا التف الصعاليك الغني والسيد مع الفقير والعبد، باحثين عن العدالة وسط الطبيعة التي لا تميز بين الناس، "راضين بالموت غير خائفين منه، فقد كانت هذه السمة خاصة في الصعاليك إذ لاشيء يدعو إلى الحياة، ولا فرق بين الموت والحياة مادام أنهم لا يملكون قبيلة أو أهلا أو مالا يخافون عليه..."¹.

- وقد كان خروجهم عن أنفة وعزة نفس رافضين العيش كتابعين وهذا ربما أكبر سبب دعاهم إلى التصعلك إذ يقول تأبط شرا:

ولست براعي ثلة قام وسطها*** طويل العصا غرنيق ضحل مرسل

فهو يرفض هنا أن يكون مجرد راع للأغنام أو الإبل، بل يطمع إلى أن يكون سيدا، أو غازيا في قبيلته إذ يقول كذلك:

متى تبغني مادمت حيا مسلما*** تجدني مع المسترعل المتعهل

¹ الشعراء الصعاليك مصدر سابق بتصرف: ص28، 29، 30، 31، 32، 33، 34، 35، 36.

إذ يريد أن يكون في الواجهة وفي الرعيّل الأول التي يخرج من أجل القبيلة منتظرا بأنه ليس ممن يمنع من الخروج، والمؤكد من هذه الشواهد أن هؤلاء الشعراء كانوا يعانون نفسيا بسبب احتقار أهل القبيلة لهم، ما دفعهم إلى اختبار الطبيعة وتفضيلها على القبيلة، وهذا يظهر جليا في لامية الشنفرى وقد كان في نظرهم أن الطبيعة تمنح لهم الخصال المحمودة فبالغزو كانوا ينفقون على الفقراء، وهذا مبدأهم الأساس وهو المساواة إذ يأخذون من الأغنياء ويعطون الفقراء مفتخرين بكرمهم والذي كانت مادته الإغارات التي يقومون بها.

- ف: " طلب الغنى عند عروة ليس هدفا في ذاته، ولكنه وسيلة للكرم وقضاء الحقوق والتشبه بالسادة." ¹ وهنا يؤاخذ الكاتب على قوله: (والتشبه بالسادة) فعروة كان سيدا وابن سيد، فكيف يسعى إلى التشبه بالسادة، وإلى جانب هذه القوة النفسية لهؤلاء الشعراء توجد القوة البدنية والشجاعة إذ يقول تأبط شرا:

وما ولدت أمي من القوم عاجزا *** ولا كان ريشي من ذنابي ولا نعب

وقد شاعت أخبار قوتهم وشجاعتهم بين الفرسان والعرب بطول الحديث عنها ويتبعها اعتراف أشهر فرسان العرب وهو عمرو بن معد يكرب بأنه لا يخشى أحدا من فرسان العرب إلا أربعة: منهم السليك، وهذه الشجاعة لم تكن مقصورة على صعلك دون غيره، بل امتازوا بها جميعا، ولعل أبرز سمة كانت تدل على قوتهم البدنية هي سرعة العدو التي عرفوا بها، وميزتهم عن غيرهم

¹ المصدر السابق: ص40.

من الناس، وهذا ربما لطبيعة عيشتهم وما فرضه عليهم الغزو، حيث كانوا يفتخرون بهذه الميزة التي تساعدهم على الفرار من العدو من أجل التحضير لغزو آخر حيث يقول أبو خراش الهذلي الصعلوك:

فإن تزعمي أني جنت فإنني *** أفر وأرمي مرة كل ذلك

أقاتل حتى لا أرى لي مقاتلا *** وأنجو إذا ماخفت بعض المهالك¹

فالشاعر هنا يرى أن الفرار ليس لجنه وإنما كي يستعد لغزو آخر وهي خطة يضطر إليها في القتال حين يدركه الخطر².

- وقد صارت هذه الصفة ملازمة لهم وتخصهم حتى سمو " بالعدائين " وقد كانوا يفتخرون بها أيما افتخار حيث يقول تأبط شرا مفتخرا بسرعته التي أنجته من أعدائه:

ليلة صاحوا وأغروا بي سراعهم *** بالعيكتين لدى معدى ابن براق

كأنما حثحثوا حصا قوادمه *** أو أم خشف بذي شث وطباق

لاشيئ أسرع مني، ليس ذا عذر *** وذا جناح بجنب الريد خفاق

¹ ديوان الهذليين: ج2، ص169.

² الشعراء الصعاليك، مصدر سابق بتصرف، ص42.

حتى نجوت ولما ينزعوا سلمي *** بواله من قبيض الشد غيداق¹

ولعل أجمل غارة انتهت بالعدو والفرار هي التي شنّها الشنفرى بعد تحقيق أهدافه حيث يصفها

قائلاً:

وليلة نحس يصطلي القوس ربها *** وأقطعه اللاتي بها يتنبل

دعست على غطش وبطش، وصح *** بيتي سعار وإرزيز، ووجر وأفكل

فأيمت نسوانا وأيتمت إلدة *** وعدت كما أبدأت والليل أيل

وأصبح عني بالغمصاء جالسا *** فريقان: مسؤول وآخر يسأل

فقالوا: لقد هرت بليل كلابنا *** فقلنا أذئب عس أم عس فرغل

فلم تك إلا نبأة ثم هومت *** فقلنا قطاة ريع أم ريع أجدل

فإن يكن من جن لأبرح طارقا *** وإن يك إنسا ماكها الإنس تفعل²

وهنا يصور الشاعر سرعته في الإغارة وسرعته في العدو وبعدها، لأن القوم لم يدركوه فظنوا أن

الجن من فعل هذا بهم. دون أن ينسى هؤلاء الشعراء ذكر الأسلحة وهي المعين لهم في الإغارة

كما فعل عمرو بن براقه في وصف السيف، والشنفرى في وصف القوس والسيف.

¹المصدر السابق:ص52.

²المصدر نفسه: ص53.

- وكل هذه الأمور والحياة الخاصة جعلت قطيعة بين هؤلاء الصعاليك ومجتمعهم، لفقدهم الطمأنينة فيه فانقطعت الصلة بينهما¹ حتى رأو في مجتمعهم مجتمعا مختلا يسيطر عليه ظلم اجتماعي وأنانية اقتصادية وتنقصه عدالة اجتماعية، فأقاموا لأنفسهم مجتمعا خاصا وفوضوا شريعته القوة ووسيلته الغزو والإغارة وهدفه السلب، أعانهم في ذلك الحرية الموجودة في الصحراء دون أي حدود أو قيود يمارسون فيها نشاطهم الإرهابي².

ولا أدري لم وصفهم الكاتب بهذا الوصف (إرهابي) فهو يتناقض مع مضمون كتابه من جهة هو معجب بهم وبفلسفتهم ومن جهة يصفهم بالإرهاب برغم أن الغزو والإغارة كانت منتشرة بين كل القبائل وليس الصعاليك فقط ، فقط ما يميز الصعاليك أنهم خرجوا عن نظام القبيلة إلى نظام الطبيعة وألفوا الصحراء حتى صارت بيتهم، ووحوشها حتى صارت أهلهم، وما يجمع هؤلاء الصعاليك-على اختلاف دوافعهم للتصعلك- أنهم جميعا فقدوا توازنهم الاجتماعي³، هذا التوازن الذي تقوم عليه الصلة بين الفرد والمجتمع، وفقدان هذا التوازن يؤدي إلى الصراع بين الفرد ومجتمعه.

¹ المصدر السابق: ص54.

² المصدر نفسه: ص55.

³ المصدر السابق: ص58.

الفصل الثاني:

- التفسير الجغرافي لظاهرة الصعلكة:

أهمية العامل الجغرافي:

باعتبار أن الشاعر ابن بيته - كما يقال - فالبيئة أو العامل الجغرافي لم يحدد فقط طبيعة شعر الصعاليك إنما حدد عقلياتهم ونظرتهم إلى الحياة والمجتمع، تلك البادية القاسية التي كانت مسرحاً لهم، وهي الجزيرة العربية تلك الوقعة التي لم تدخل في نطاق الحضارة باعتبارها صحراء قاحلة تكاد تنعدم فيها سبل العيش الكريم والرغد مع ما يحيط بها من جبال وتضاريس وعرة لا ماء فيها ولا أنهار ولا سهول تقع في منطقة الرهو المدارية ذات الضغط العالي والمطر القليل والقسم الآخر في حيز الرياح التجارية الشمالية الشرقية الجافة¹ حتى إن المطر لا يسقط في بعض المناطق إلا كل 3 أو 4 سنوات ولهذا ارتبط أهل الصحراء بالمطر ارتباطاً وثيقاً وسموه غيثاً وحياً، ووقف عنده الشعراء مطولاً في قصائدهم فرحة به، وعندما يحتبس المطر يجير أهل البادية على النجوع أو الانتجاع من ديارهم إلى تلال اليمن أو الشام أو النيل أو الفراتين، ويرجع السبب في هذه البيئة القاسية لعدم وجود الأنهار والوديان التي تمتلئ بسقوط المطر وتفيض²، وهذا سبب وجيه للارتحال من قسوة الطبيعة؛ إلا في مناطق قليلة كاليمن الخضراء وهضبة نجد العالية لوجود الماء فيها والغابات والآبار،

¹ المصدر السابق: ص 65.

² المصدر نفسه: ص 68.

وقد نزلت القبائل في هذه المناطق الخصبة واتخذتها منزلاً لها وأقامت حولها القرى وكانت ترحل إليها القبائل وقت الصيف لاعتدال مناخها وكثرة فاكهتها، وهذا التضاد الجغرافي لعب دوراً أساسياً في نشأة حركة الصعلكة وفي عقلية ذلك البدوي المتضادة أيضاً فهو يبالغ في الشر والخير وفي العداوة والمحبة يخاطر بحياته في الغزو ثم يوزع ما يغنمه على سواه، وهذا ما نجده في الصعاليك بل هو غرض يعيشون لأجله.

وهذا التضاد في الطبيعة أوجد الفقر في جهة والغنى والراحة في جهة، وهذا التضاد هو ما جعل فئة تنظر في هذا الفرق لتحقق على فئة أخرى، وتحاول أن تفسر فقرها وتسعى للحاق بالأغنياء، ففي نظر الصعاليك أن هذه ليست عدالة اجتماعية، وقد كان في عقلية أهل الصحراء كره للزراعة والصناعة بداعي الترحال فكانوا يفضلون الرعي والتجارة والصيد والنهب، فالرعي والتجارة لم يكن الصعاليك قادرين عليها الأولى لأنفة فيهم والثانية لعدم وجود المال، فلم يبق أمامهم إلا الصيد والنهب، وهنا يظهر كيف أثر العامل الجغرافي في إنتاج عامل الصعلكة¹. فانتشر هؤلاء الصعاليك في البادية يقطعون الطريق وينهبون القوافل.

- وقد كان لهذا التضاد الجغرافي أثره في توجيه حركة الصعاليك ومناطق نشاطهم، فاختاروا المناطق الخصبة التي تعرفها الجزيرة العربية، منطلقين من المناطق المجذبة في صراع طبيعي فرضته الصحراء على الصعاليك، وهو اقتصاص من الخصب يوضع في الجذب موزعين نشاطهم على تلك المناطق،

¹المصدر السابق بتصرف: ص74، 75، 76.

فعروة وفتيانه تركز نشاطهم في منطقة يثرب وما جاورها، فيما كانت منطقة جبال السراة بين مكة والطائف أكثر منطقة تعرضت للغزو، لتمييزها بالتضاد الجغرافي، وكان وجود الجبال من العوامل التي تدفع أهل هذه الجبال إلى الإغارة على السهول¹ وقد تعدت مناطق الإغارة نجد والحجاز إلى اليمن كما كان يفعل السليك وتأبط شرا الذي كان يهيم الطريق إلى الإغارة في الربيع ويغير في الصيف حين تنقطع الخيل².

ويفسر الدكتور يوسف خليف أن منطقة اليمن كانت تتعرض للإغارة من الصعاليك العدائين فقط لأن طريقها طريق جبال وهذه الجبال تساعد لرجل في منح عضلات قوية في الأرجل يتمكن من خلالها من العدو وتكسبه قوة لكثرة تسلقه تلك الجبال، والأمر الثاني أن هذه المناطق لا تربي فيها الخيل وهذا يمنح للعدائين الهروب بعد الإغارة دون أن تلحقهم بعكس عروة وفتيانه الذين كانوا يغيرون على مناطق نجد كانوا يعتمدون على الخيل في إغاراتهم لأن طابع المنطقة الخصب يفرض عليهم ذلك³.

¹ المصدر السابق بتصرف: ص 80، 81، 82.

² المصدر نفسه: ص 86.

³ المصدر نفسه: ص 87.

الفصل الثالث:

- التفسير الاجتماعي لظاهرة الصعلكة:

يشير الدكتور يوسف خليف إلى أمر هام صنع ظاهرة الصعلكة وهو انقسام نمط القبيلة العربية إلى قسمين: قبائل بدوية وقبائل مدنية، وهذا الانقسام لم يؤثر على النظام العام للقبيلة والوحدة الاجتماعية للمجتمع الجاهلي ذلك النظام الذي كان يخضع للقبيلة التي كانت تؤسس بمرور الزمن من جد واحد، وهذا ما يجعل الشعور الجماعي ساريا بين أفراد القبيلة الواحدة¹ وقد كان هذا الشعور والانتماء مقدسا عند العربي لا يخرج عنه أطلق عليه مصطلح "العصبية" التي تقوم على أساس عاطفي، ولكن إذا قام الفرد بعمل سيء تجاه قبيلته نفسها فإنها تطرده ويسمى خلعا أو خليعا أو طريدا بإعلان رسمي في المواسم والأسواق ليعرف الجميع تبرؤها منه، وبهذا تسقط حقوق الفرد على قبيلته ويصبح وحيدا في خطر ومشكلة الحياة أو الموت، فإما أن يواجه الحياة وحيدا في الصحراء القاسية وإما يبحث عن احد يجيره ومن هنا " كانت نشأة قانون آخر من قوانين المجتمع الجاهلي وهو: قانون الجوار"²، وقد كان هذا القانون مقدسا عند العرب.

¹ المصدر السابق: ص 89،90 بتصرف.

² المصدر نفسه: ص 95.

إيمان القبيلة بجنسها:

- كان أفراد كل قبيلة يظنون أنهم الأحسن بين العرب لذلك كثر الفخر والمدح في شعرهم والهجاء حيث يقول يوسف خليف: " فقد آمنوا بأنهم جنس ممتاز، لا تفضلهم قبيلة أخرى"¹، وهذا ما خلق العداوة بين القبائل، فكثرت الحروب والسي، وكانوا يبيعون من يسبونه حتى الأسياد منهم، وأخبار المجتمع الجاهلي العربي مليئة بمثل هذا، فكانت تجارة الأسرى منظمة وهذا ما خلق طبقة العبيد، وطبقة أخرى وهي طبقة الموالي وهم العرب الأحرار الذين يتم عتقهم فينتسبون إلى قبيلة أخرى.

- وقد أدى هذا التفاوت حسب ما ذكر الكاتب إلى الطغيان والجبروت، مع الحرص على الشرف، وقد كان يحدث أن يتزوج سيد من أمة له، ولكن العرب لم ترى أن هذا الزواج متكافئ وسمي الولد منه (هجيناً) لا يعترف به إلا إذا أبدى نجابة في الشعر والفروسية، وعنترة بن شداد خير دليل على ذلك هذا الأخير الذي كان من أغربة العرب لأجل سواد لونه، وهو اسم أطلقه العرب على بعض أولاد الإمام ممن سرى إليهم سواد أمهاتهم الإمام² فكانوا يقومون بالأعمال الفرعية، وقد كان لفترة جدل خاص بعد اعتراف أبيه به لا يشبه حال الأغربة الآخرين الذين عانوا من الاضطهاد، وأغلبهم كانوا من الصعاليك، كالسليك بن السلركة، وتأبط شرا، فكانت صلة

¹ المصدر نفسه: ص105.

² المصدر السابق بتصريف: ص109، 110، 111.

هؤلاء الأعرية أقوى مع أمهاتهم دون آبائهم، فالتقى هؤلاء الأعرية مع الصعاليك من الخلعاء والشداد لتقاسمهم الهموم نفسها والمصير نفسه.

- الصعاليك والمجتمع القبلي:

- ما من شك بعد معاناة هؤلاء الصعاليك أنهم سيفقدون إيمانهم بالقبيلة التي رفضتهم، ويفقدون أيضا الإحساس بالعصبية القبلية بل " قد ينقلبون انقلابات ما فتصبح صلتهم بقبائلهم صلة عداوة"¹، كما يشير الكاتب وهذا ما يؤدي بهم إلى غزو قبائلهم، وهذا ما قرأنا منه الكثير في أخبارهم كإغارة قيس بن الحدادية على قومه، بالمقابل نجد السليك أنه لم يغر على قومه مضر وإنما اتجه صوب اليمن، وقد كانت عقلية الصعاليك هذه تشبه عقلية القبيلة العربية بإغارة القبائل على بعضها كانت جماعية منظمة وإغارة الصعاليك كانت فردية.

¹ المصدر نفسه: ص 117.

الفصل الرابع:

- التفسير الاقتصادي لظاهرة الصعلكة:

اشتهر العرب بالتجارة من زمن بعيد كما يشير الكثير من الباحثين والرحالة، بل وكانوا في وقت مضى الوساطة بين الغرب والشرق بفعل هذه الحركة التجارية النشطة بعيدا عن طريق البحر المملوء بالمخاطر والقراصنة، وكان الجنوبيون (اليمن) يسيطرون على هذه الحركة متخذين من بلاد الشماليين طريقا لهم، ف: "أوجدت في نفوس الشماليين رغبة في الأخذ بهذا الأسلوب"¹ كما يشير الكاتب، وبضعف الدولة اليمنية سيطر عرب الشمال على هذه التجارة، وجعلوا مكة مركزا لهم.

- ويشير الكاتب إلى أن التجارة العربية شهدت طريقين أساسيين للقوافل من ظفار باليمن ويتجه إلى الشرق والغرب، والطريق الشرقي متاخم لعمان إلى القطيف على الخليج الفارسي إلى تدمر إلى فلسطين أما الطريق الغربي فكان من ظفار إلى واديز حضرموت إلى شبوة إلى عدن حتى يدخل الحجازين الصحاري بالإضافة إلى الكثير من الطرق الفرعية،

وبوجود هذه القوافل كان لابد من وجود أسواق لتبادل السلع تقوم على طول هذه الطرق يقبل إليها السكان بسلعهم، ويذكر أنها كانت عشرة أسواق مشهورة، بالإضافة إلى أسواق أخرى، بمكة ويثرب وبنى قينقاع التي يسيطر عليها اليهود، بصناعتهم وحرفهم، وكانت الأسواق نوعين: سوق

¹ المصدر السابق: ص 124.

منظمة أو محروسة تخضع لسلطة، وسوق فوضوية في بلاد البدو، المتغلب فيها هو من يحكمها، أو الذي تقام في أرضه¹.

ومن هنا نستطيع أن نفسر ظاهرة الصعلكة كما يشير الأستاذ يوسف خليف: "وأظن أننا نستطيع أن نقول إن من أسباب انتشار الصعاليك في هذه المنطقة وقوعها على الطريق التجاري الذي يصل بين اليمن والشام مما جعله مقرا للقوافل التجارية"².

ومن هنا يشير الكاتب أنه كان لهذه الأسواق أثر في حياة الصعاليك بفعل تجارة العبيد فيها، فكانت هذه الأسواق محل صراع بين سكان الجزيرة أو القبائل، وقد نشطت الحركة التجارية نشاطا واسعا في مكة بالذات لاعتبارات كثيرة، حتى سيطرت على التجارة في القرن الخامس ميلادي، فظهر بها أصحاب المال المسيطرين بنفوذهم على الوضع الاقتصادي والسياسي، وهم الطبقة الحاكمة وظهور طبقة المعوزين ومنهم الصعاليك، ما أحدث خللا في النظام الاقتصادي، فظهرت الربا والدين والتبعية الاقتصادية والرق...إلخ.

ولأن مكة كانت مدينة يقيم أهلها في منازل مبنية، لم يناسب ذلك الوضع الصعاليك مما أدى بهم إلى الخروج إلى الصحراء واللوذ بها في حالة الذعر، لذلك كثر بها الخلعاء، لأن بها بيتا مقدسا من دخله فهو آمن.

¹ المصدر السابق بتصرف: ص 129، 130، 131.

² المصدر نفسه: ص 133.

وكان هؤلاء الصعاليك حسب الكاتب يتربصون بالقوافل القادمة إلى سوق مكة على حد تعبيره: "ويبدو أن هذه الغارات مهما تختلف أسبابها المباشرة باختلاف أصحابها يرجع سببها العام إلى اختلال التوازن الاقتصادي في ذلك المجتمع الذي يضع طائفة من أفراده بين نابين من فقر وجوع"¹ هذا داخل المدينة، أما عند البدو فهناك طائفتان هما: أصحاب الإبل، والصعاليك وكان الفرق بينهما بعيدا بقدر الفرق النفسي، وبين الفرق الاقتصادي والفرق النفسي ظهرت ظاهرة الصعلكة، قائمة على ثروة الأفراد التي كان قوامها ما يملك الفرد من الإبل، وفي المقابل الصعلوك الذي لا يملك شيئاً.

ومن هنا يشير الكاتب إلى أنه كان هناك: "صراع كان يدور داخل البادية العربية بين طبقة الما أصحاب المفائض والمتمردين من طبقة الصعاليك"².

¹ المصدر السابق: ص145.

² المصدر نفسه: ص150.

الفصل الثاني

شعر الصعاليك موضوعاته

وظواهره الفنية

1_ شعر الصعاليك:

- إن أول ما نقف عليه في هذا الباب هو مصادر الشعر الجاهلي والذي يدخل في عمومته شعر الصعاليك، فهي مسألة أرقّت الباحثين منذ القديم، والملاحظ لجميع المصادر التي جمعت الشعر أنّها عيّنت بالجانب وما يخدم اللغة، وصدفت النظر إلى الشعر الذي يهتم بالمجتمع وتاريخه والذي من خلاله نستطيع فهم المجتمع الجاهلي بعمق، فقد عمد الرواة إلى جمع ما يخص اللغة من الشعر خدمة لها ولم يسجلوا جوانب الحياة الجاهلية عموماً وهذا قد أضر بالشعر إلا بعض النزر القليل الذي وصلنا وعلى هذا يرى صاحب الكتاب أن الرواة والمهتمين: "كانوا ينظرون إلى الشعر القديم على أنه وسيلة لأغراض لغوية على أنه نتاج عصر متعدد الجوانب"¹.

- وعلى هذا: إذا كان الرواة قد تجاهلوا الأشعار التي تؤرخ للمجتمع وجوانبه فكيف بشعر الصعاليك، وقد كان هؤلاء ضد المجتمع آنذاك متمردين على أوضاعه وتقاليده، فلم يكن للقبائل أن تقبل بشعر يمجّد صاحبه، في حين فرطت في الكثير من الأشعار التي تحدّثت عن المجتمع، ومن غير الممكن أن تنقل القبائل شعر أعدائها من الصعاليك، لذلك يعدّ البحث عن شعرهم أمراً صعباً، والسؤال المطروح حسب الكاتب هنا: كيف وصلت إلينا هذه المجموعة بالرغم من كل

¹ المصدر السابق: ص 153.

هذا؟ وكيف كان يصل ما يقولونه من شعر وسط الصحراء المترامية الأطراف إلى آذان المجتمع الأدبي؟¹.

- يوضح الكاتب في هذا الباب أن بحوزته ثلاثة مصادر لهذه المجموعة الشعرية وهي: القبيلة نفسها التي روت شعر هؤلاء قبل تصعلكهم، والثاني المجموعة الشعرية التي خلت من مهاجمة القبيلة أو التعرض لها، كوصف الغارات أو الصحراء، والثالث المجموعة التي وصلتنا من الصعاليك الذين لم يفارقوا قبائلهم كصعاليك هذيل.

- إذن فالقبيلة هي مصدر شعر الصعاليك سواء القبيلة الأصلية أو المجيرة، هذه الأخيرة التي تحرص على الترويج لشعر الصعاليك لأن فيه مدح لهم وذم لغيرهم، وهذه القبائل هي المصدر الثاني، وأما المصدر الثالث فهم الشعراء أنفسهم، فالتأكيد أنهم كانوا يذيعون أشعارهم في كل مناسبة لأنها تعبر عن مذاهبهم في الحياة، من أجل إقناع غيرهم بما يفعلون، وقد بقي شعرهم على الغالب إعجابا كبيرا في الأوساط الشعبية لما فيه من تعبير عن نفسية الكثير من أفراد المجتمع آنذاك وشعورهم، لما فيه من بطولة وجرأة وخروج عن المألوف.²

- وقد تنبّه الرواة إلى التشابه الفني بين أشعار هؤلاء، فجمعوه في دواوين خاصة صاع جلها، ولم يصلنا إلا أسماء مؤلفيها، و" ليس بين أيدينا الآن من هذه الدواوين - فيما أعرف - سوى قطعة

¹ المصدر السابق: ص155.

² المصدر نفسه: ص157، 158 بتصرف.

من "كتاب أشعار اللصوص" لأبي سعيد السكري¹ وقد أثنى على هذا الكتاب صاحب الخزانة "البغدادى".

- وتشير مصادر الأدب العربي إلى دواوين لبعض الشعراء الصعاليك، كالأمدي في ترجمته لأبي الطمحان القيني إلى "ديوانه المغرد"، وقد وصلنا - حسب الكاتب - من دواوين الصعاليك ديوانان: ديوان عروة وديوان الشنفرى، وهما الديوانين اللذين حظيا بالدراسة والكتابة.

- وإلى جانب هذين الديوانين هناك نسخة من مجموعة أشعار هذيل التي عمل عليها السكري أيضا، ولكن ما يصعب في هذا المجال كما يشير الأستاذ يوسف خليف هو شعر باقي الصعاليك، وبالطبع هو متناثر في سائر مصادر الأدب العربي بين مطبوع ومخطوط، وهو مفرق تفريقا شديدا بين هذه المصادر تكاد كلها تحوي أبياتا للصعاليك حيث يقول الكاتب: "فما دام شعر الصعاليك يمثل البادية العربية في كثير من جوانبها اللغوية والجغرافية والاجتماعية والاقتصادية تمثيلا صادقا صحيحا، فمن الطبيعي أن يتخذ اللغويون والرواة والجغرافيون والمؤرخون مصدرا من مصادره الأساسية"².

- وقد كانت المجموعة اللغوية من أهم مصادر شعر الصعاليك منها لسان العرب وتاج العروس وجمهرة اللغة لابن دريد، وقد كانت هذه المصادر تنفرد أحيانا بأبيات لم ترد في مصادر أخرى

¹ المصدر السابق: ص158.

² المصدر نفسه: ص163.

كالدواوين، وكذلك المجموعة الجغرافية منها معجم البلدان لياقوت الحموي، ومعجم ما استعجم للبكري من أهم مصادر الشعر الأساسية للشعراء الصعاليك، لما تفردت به من ذكر المناطق، وضبط النصوص وأمكنتها، وقد كان الشعر فيها وسيلة لا غاية.

فيما توجد مصادر أخرى كانت غاية لهذا الشعر منها المفضليات للمفضل الضبي، والأصمعيات، و"جمهرة أشعار العرب" لأبي زيد القرشي، و"منتهى الطلب من أشعار العرب" لمحمد بن المبارك، وهو مخطوط، بالإضافة إلى حماسة أبي تمام، وحماسة البحتري، والحماسة الصغرى لأبي تمام، منها ما انفرد بمقطوعات كاملة لشعر الصعاليك¹، وهناك بعض المصادر الأخرى ككتب التراجم والدراسات النقدية والتاريخية للأدب العربي، وكتب النحو الصرف لما فيهما من شواهد كثيرة.

- مادة شعر الصعاليك:

- لا بد أن تكون مادة شعر الصعاليك مشتتة ومضطربة كتشتت حياتهم واضطرابها، ومع كثرة مصادرها فهي قليلة جدا ربما لضياعها بسبب مذهب الصعاليك في الحياة وطريقة عيشهم، ويرى الكاتب أن هذه المادة تميزت بثلاث مميزات: "قلتها، كثرة الاضطراب في رواية نصوصها، ثم الشك الذي يحيط ببعض نصوصها"²، هذا الأمر الثالث الذي أرق الباحثين، بسبب الشك في نسبة

¹ المصدر السابق: ص 163، 164، 165، 166 بتصرف.

² المصدر نفسه: ص 169.

الشعر الجاهلي عموماً، وهذا الشك في نظر الكاتب هو شيء إيجابي يبين مدى جهود القدماء في التنقيب عن الشعر الجاهلي واتباع الأصح منه.

- ويشير الأستاذ يوسف خليف أن الشك في شعر الصعاليك كان نوعان: مجموعة كان الشك فيها داخلياً، أي اتفق الرواة على أنها من شعر الصعاليك وكان الاختلاف في نسبتها إلى أحد منهم، كالبائية التي تروى مرة لأبي فراس الهذلي ومرة للأعلم الهذلي، ومرة لتأبط شراً، وهذا الاختلاف لا يضر ولا تأثير له في الدراسة الاجتماعية لظاهرة الصعلكة.

- أما الأمر الثاني فهو الشك الخارجي أي نسبة هذه الأشعار إلى الصعاليك أم لغيرهم، وهنا يجب الرجوع إلى الخصائص الفنية من أجل إثبات نسبة النصوص، وأشهر ما تعرض للشك من شعر الصعاليك لاميتان، إحداهما للشنفرى وهي المشهورة، والأخرى مطلعها:

إن بالشعب الذي دون سلع *** لقتيلاً دمه ما يطل

وكلتا اللاميتين اتهم خلف الأحمر بصنعهما، وذلك أنه كان أمرس الناس بالشعر باعترااف المتقدمين والمتأخرين في زمانه، و" معنى هذا أننا أمام مزيف بارع يعرف أساليب العرب في الشعر ويقلدها ثم يحملها عليهم"¹.

¹ المصدر السابق: ص 176.

2_ موضوعات شعر الصعاليك:

2_1 الشعر داخل دائرة الصعلكة:

_ أحاديث المغامرات:

- ليس غريبا أن يطول أحاديث المغامرات في شعر الصعاليك، لما اتسمت به حياتهم بالغزو والنهب لأنه هو الحرفة التي اتخذوها وهم " يتحدثون عن هذه المغامرات حديث المؤمن بقيمتها في حياته"¹ واصفين كل ما يحدث فيها، كما قال الشنفرى بعد عودته من إحدى غاراته واعتراض إحدى القبائل طريقه وأصحابه:

دعيني وقولي بعد ماشئت إنني *** سيغدى بنعشي مرة فأغيب

موضحا لهفته إلى اللحاق بأصحابه ولا يطول الحديث ليذكر مغامراته قائلا:

خرجنا فلم نعهد وقلت وصاتنا *** ثمانية مابعدا متعتب

سراحين فتيان كأن وجوههم *** مصاييح أو لون من الماء مذهب

ثم يصور المعركة التي دارت قبيل الفجر وكانت شديدة وخاطفة وكأنهم جيش كامل حين انتاب أعداءهم فزع شديد قائلا:

¹المصدر نفسه: ص182.

فثاروا إلينا في السواد فهجهجوا *** وصوت فينا بالصباح المثوب

فشن عليهم هزة السيف ثابت *** وصمم فيهم بالحسام المسيب

وظلت بفتيان معي أتقيهم *** بمن قليلا ساعة ثم خيوا

وقد خر منهم راجلان وفارس *** كمي صرعناه ونحوم مسلب

يشن إليه كل ريع وقلعة *** ثمانية والقوم رجل ومقنب

وبعد هذا الانتصار يرجع هؤلاء الصعاليك إلى أصحابهم كي يخبروهم بما قاموا به من بطولات:

فلما رأنا قومنا قيل أفلحوا *** فقلنا اسئلوا عن قائل لا يكذب¹

وهذا السليك يصف إحدى غاراته وشجاعته بعد تربصه بصاحب إبل:

وعاشية راحت بطانا ذعرتها *** بسوط قتيل وسطها يتسيف

كأن عليه لون برد محبر *** إذا ما أتاه صارم يتلهف

فبات له أهل خلاء فناؤهم *** ومرت بهم طير فلم يتعيفوا

وباتوا يظنون الظنون، وصحبتني *** إذا ما علوا نشزا أهلوا وأوجفوا

وما نلتها حتى تصعلكت حقبة *** وكدت لأسباب المنية أعرف

¹ المصدر السابق: ص 183.

فالشاعر هنا يبدأ مقطوعته من حيث انتهت مهمته¹، وهذا تأبط شرا يحدثنا عن مغامرة طريفة

حيث يقول:

إذا المرء لم يحتل وقد جد جده *** أضع وقاس أمره وهو مدبر

ولكن أخو الحزم الذي ليس نازلاً *** به الخطب إلا وهو للقصد مبصر

فذاك قريع الدهر ما عاش حول *** إذا سد منه منخر جاش منخر²

_ شعر المراقب:

والمراقبة ذلك المكان العالي الذي تتم به المراقبة والتربص للأعداء وتكثر في شعر الصعاليك هذه الأحاديث خاصة أثناء الليل لأنه أنسب للتخفي ويدل على جرأتهم وشجاعتهم، ويرسم الشنفرى لوحة فنية في هذا الغرض وكيف صعد إليها وقضى ليلته هناك متربصاً حيث قال:

ومراقبة عيطاء يقصر دونها *** أخو الضروة الرجل الخفيف المشفف

يميت إلى أعلى ذراها وقد دنا *** من الليل ملتف الحديقة أسدف

فبت على حد الذراعين محدبا *** كما يتطوى الأرقش المتقصف

قليل جهازي غير نعلين أسحفت *** صدورها مخصورة لا تخصف¹

¹ المصدر السابق: ص185.

² المصدر نفسه: ص186.

واصفا فيها نفسه في توكله كأنه ثعبان ولا يملك سوى نعلين بالبين في ليل مخيف ومظلم، مجيدا في وصف حاله تلك الليلة.

وبالنسبة لتأبط شرا فالمرقبة هي صورة طريفة وتعلو سائر المراقب معقدة ذات تجاعيد كأنها عجوز عليها ثياب بالية حيث يقول :

ومرقبة يا أم عمرو طمرة *** مذبذبة فوق المراقب عيطل

نهضت إليها من جثوم كأنها *** عجوز عليها هدمل ذات خيعل²

أما أبو خراش فيقول:

بصاحب لاتنال الدهر غرته *** إذا افتلى الهدف القن المعازيب

بعثته بسواد الليل يرقبني *** إذا آثر النوم والدفء المناجيب³

- التواعد والتهديد: ومن الطبيعي بعد الخروج عن القبيلة والتربص بها أن يتواعد هؤلاء الشعراء أعداءهم لذلك كان في شعرهم هذه الخاصية الفنية التي عرفوا بها وكان أكثر من يتواعد هو الشنفرى توعدا عنيفا لأن قومه ظلموه كثيرا، يقال أنه أقسم أن يقتل مئة رجل منهم ولن يكف عن غزوهم حيث يقول:

¹المصدر نفسه: ص187.

²المصدر السابق: ص189.

³المصدر نفسه: ص190.

فإلا تزرنني حتفي أو تلاقني *** أمش بدهو أو عدا ف بنورا

أمشي بأطراف الحماط، وتارة *** ينفض رجلي بسيطا فعصنصرا

أبغني بني صعب بن مر بدارهم *** وسوف ألاقيهم إن الله أخرا¹

وقد كان أحيانا يتأخر عن غزوهم ليس كفا عنهم وإنما انتظارا للفرصة المناسبة وأما تأبط شرا فقد كان أوسع ميدانا شاكرا قدميه القويتين اللتان تساعدانه على الجري والهروب مهددا قومه بالانتقام الشنيع.

_ وصف الأسلحة:

بمخرج الصعاليك عن قبائلهم وتوعدهم إياها لا بد أن يكون هناك سلاح للقتل والثأر، وهو الطرف الثالث إلى جانب قوة قلوبهم وقوة أرجلهم، ثلاثة جوانب يجمعها تأبط شرا في رثاء الشنفرى:

فلا يبعدن الشنفرى وسلاحه *** الحديد، وشد خطوه متواتر

ويلح الصعاليك إلحاحا شديدا في وصف هذه الأسلحة، لأنها تكاد تكون كل ما يملكون في حياتهم، فالسيف عند عمرو بن براقه جل ماله قائلا:

وكيف ينام الليل من جل ماله *** حسام كلون الملح أبيض صارم

¹المصدر نفسه: ص192.

غموض إذا عض الكريهة لم يدع *** له طعاما، طوع اليمين ملازم

وكان الصعاليك حريصين على وصف أسلحتهم، يقول الشنفرى:

فشن عليهم هزة السيف ثابت *** وصمم فيهم بالحسام المسيب

وظلت بفتيان معي أتقيهم *** بمن قليلا ساعة ثم خبيوا

وقد وصفوا القوس والسهم أيضا، فكان الشنفرى مفتونا بها، وكان يعلمها بعلامة خاصة حتى يعرفها الناس، وكذا كان الهذليون يصفون السهم بدقة من بداية صنعها إلى نهايته، وقد كان بعضهم يذكر حتى عددها في الكنانة، أما القوس فكانوا يهيمون بصوتها حين ينبضون فيها، ولعل أبرز صعلوك جمع وصف الأسلحة هو الشنفرى في لاميته:

ثلاثة أصحاب فؤاد مشيع *** وأبيض إصليت وصفراء عيطل

إذا زل السهم عنها حنت كأنها *** مرزأة تكلى ترن وتعول

وبالإضافة إلى الحديث عن أسلحة الهجوم كانوا كذلك يتحدثون عن أسلحة الدفاع.

_ الحديث عن الرفاق:

لا بد أن يكون للرفاق نصيب كبير من الشعر في شعر الصعاليك ذلك لأنهم رفقاء درب تقاسموا تلك الحياة البائسة فنتج بينهم محبة أكبر من محبة القبيلة يصفون بها بغضهم البعض بكلمات تميزوا

بها عن غيرهم من الشعراء ك: الفتيان، الأصحاب، الرجل المقنب، "وما أكثر ما نجد في شعرهم استخدام ضمير الجماعة، يعبرون عن رفاقهم لا عن قبائلهم"¹، كقول الشنفرى في إعجابه برفاقه:

سراحين فتيان كأن وجوههم *** مصابيح أو لون من الماء مذهب

وكذلك في تائيته حيث يصف نفسه رئيسا على رفاقه وقد بعثهم للغزو بذكر صفات أصحابه والدوافع التي أدت بهم إلى الغزو دون أن يخلو شعره من الطرافة حيث يصف تأبط شرا بأمر الفتيان لأنه كان يقوم على تموينهم بالزاد خفية الجوع، ويصفه بأنه أم تحمل ثلاثين سهما وسيغا صارما، وتعدو في سرعة فائقة حيث يقول:

وأم عيال قد شهدت تقوئهم *** إذا أطعمتهم أوتحت وأقلت

تخاف علي العيل إن هي أكثرت *** ونحن جيعاء، أي آل تألت

مصعلكة لا يقصر الستر دونها *** ولا ترتجي للبيت إن لم تبيت

لها وفضة فيها ثلاثون سيحفا *** إذا آنست أولى العدي اقشعرت

وتأتي العدي بارزا نصف ساقها *** تجول كعير العانة المتلفت

إذا فزعوا طارت بأبيض صارم *** ورامت بها في جفرها ثم سلت

¹ المصدر السابق: ص 206.

حسام كلون الملح صاف حديده *** جزار كأقطاق الغدير المنعت

تراها كأذنان الحسيل صوادرا *** وقد نهلّت من الدماء وعلت¹.

- والملاحظ في الأبيات أنها ربما سابقة في الشعر الجاهلي أن يصف شاعر صديقه بالمرأة لأنه يدرك حتما دوره في الإعانة والتموين ولأن رابطة الأمومة عند الصعاليك أقوى من رابطة الأبوة وصف الشنفرى صديقه بالمرأة بالرغم أنه تلك الأوصاف أكثرها أثناء الحرب والضرب وتدل على القوة والبأس، وليس العطف والحنان، أما عروة فيكلم أصحابه كلام القائد أو الزعيم وليس الرفسق أو الزميل، حيث يقول:

أقيموا بني لبني صدور مطيكم *** فإن منايا القوم خير من الهزل².

ليقوموا إلى الغزو بقيادته، ولكن من ناحية أخرى يتكلم عروة عن مضايقات أصحابه له بعد الإنتهاء من الغزو في تصرفاتهم حيث يستغنون، ولكنه يغفر لهم تلك المضايقات لشعوره بدور القائد أو الأب الذي يجب عليه تحمل أبنائه.

- أما تأبط شرا فيتحدث عن أصدقائه حديث المعجب بهم المقدر لقيمتهم، لأنهم عونهم في الحياة لتشابه المصير نفسه والعقلية نفسها ويصفهم قائلا:

مساعة شعث كأن عيونهم *** حريق غضا تلقى عليه الشقائق

¹ المصدر السابق: ص207.

² المصدر نفسه: ص207.

وقد كان تأبط شرا كثير الرثاء لأصحابه إذا فقد أحدهم، لأنهم شجعان يعينونه على الحياة البائسة والمصير المشترك وقد رثى صديقه الشنفرى في قصيدة معروفة رثاء " حارا تتجلى فيه تلك اللوعة التي أصابته بعده، متأسفاً لأنه لم يكن معه وقت الشدة عندا قتل " قائلا:

فلو نبأتني الطير أو كنت شاهدا *** لآسأك في البلوى أخ لك ناصر

إذا راع روع الموت راع، وإن حمى *** حمى معه حر كريم مصابر.

_ أحاديث الفرار:

لم يترك الصعاليك شيئاً أو موقفاً يعيشونه إلا وصفوه في شعرهم فلما تحدثوا عن انتصاراتهم ، تحدثوا عن انهزامهم وفرارهم من العدو، دون أن يجدوا في هذا الأمر غضاضة، أو عيباً وإنما كان الفرار خطة من خططهم تابعا لأحد أسلحتهم في الحرب وهو العدو لأنهم قوم عداؤون، وقد رأى يوسف خليف أنّ "الفرار فرصة تتيح لهم إظهار تلك الميزة التي يفخرون بها دائما"¹، لأنها فرصة للفخر بهذه الميزة، وقد اشتهر الصعاليك بفرارهم، خاصة صعاليك الحجاز لطبيعة الجغرافيا كما ذكرنا سابقا وبالذات صعاليك هذيل، وحاجز الأزدي الذي ذكره معظم الرواة، وقد كتب السابقون كثيرا عن هذه الظاهرة.

والقارئ لأشعار المهذلين يجد بوضوح هذه الظاهرة في شعرهم وأخبارهم عن جميع الرواة.

¹ المصدر السابق: ص 211.

_ سرعة العدو:

اعتمد الصعاليك في حياتهم ونجاتهم على سرعة العدو، لذلك ليس من الغريب أن يأخذ هذا الموضوع النصيب الأكبر من شعرهم، لأن هذه الميزة كما يرى صاحب الكتاب يعود لأمرين: " أولهما شعورهم بأنها ميزة تفردوا بها من بين إخوانهم في البشرية، وثانيهما إيمانهم بأنها من الأسباب الأساسية في نجاتهم"¹. خاصة الصعاليك السروييون من هذيل وفهم وأزد - كما يسميهم الأصمعي - حيث يتحدثون عن هذه الميزة حديث المعجب بنفسه حيث يقول الأعلام:

فلا وأبيك لاينجو نجائي *** غداة لقيتهم بعض الرجال.

في حين أن أبا خراش الهذلي لايرضى بالبشر طرفا ثانيا في هذه المباراة لأنهم أبطأ من أن يصلحوا لها، فيعقد المباراة بينه وبين حمار الوحش الذي لايستطيع مجاراته قائلا:

أقبلت لا يشتد شدى واحد *** عالج أقب مسير الأقرب.

وقد تحدثوا عن هذه الميزة حديث المعجبين بها لأنها كانت النجاة الوحيدة من كثير من الغزوات حيث يقول حاجز الأزدي:

فغير قتالي في المضيق أغاثني *** ولكن بذل الشد غير الأكاذب

فدا لكما رجلي أمي وخالتي *** بشدكما بين الصفا والأثائب.

¹ المصدر السابق: ص215.

ويشبه الشاعر هنا رجله بأمه وخالته لقراءة الدم والصلة بين الأم والخالة كقراءة الرجلين، وهنا يظهر أيضا مدى ارتباط هؤلاء الصعاليك برابط الأمومة.

وقد تخطى حديث الصعاليك عن شدة عدوهم إلى شدة عدو أصدقائهم كما يصف تأبط شرا أحد أصدقائه بأنه يسبق الريح قائلا:

ويسبق وفد الريح من حيث ينتحي *** بمنخرق من شدة المتدارك

- ولم يغفل الصعاليك في وصفهم لشدة عدوهم، أن يصفوا شدة عدو أعدائهم وذلك لإظهار هذه الميزة بطريقة غير مباشرة حيث يقول الأعلام¹:

يغرون صاحبهم بنا *** جهدا وأغري غير كاذب

أغري أبا وهب ليع *** جزمهم ومدوا بالحلائب

مد الجلجل ذي العماء *** إذا يراح من الجنائب

يغري جذيمة والرداد *** كأنه بأقب قارب

- وما ذكر عدو أعدائهم إلا للإفتخار بعدوهم إذ يسبقون أعداءهم بالرغم من شدة عدوهم وذلك لإظهار التمايز، ولعل أجمل صورة رسمها صعلك في هذا الأمر ما قال أبو خراش حين تعرض

¹ المصدر السابق: ص 217.

للمطاردة من رجل من خزاعة وكاد أن يدركه والسهام تنهال ورائه، فزاد من سرعته قائلاً:

بأسرع مني إذا عرفت عديهم *** كأني لأولادهم من القرب توأم

وأجود مني يوم وافيت ساعيا *** وأخطأني خلف الثنية أسهم

أوائل بالشد الذليق وحثني *** لدى المتن مشبوح الذراعين خلجم

تذكر ذحلا عندنا وهو فاتك *** من القوم يعروه اجترأ ومأثم¹.

وهنا يتكلم الصعلوك عن شدة عدو عدوه، ومع ذلك لم يدركه وهذه مقارنة من أجل الإفتخار

بنفسه وأكثر من هذا عند الأعلام حين يخبر من كرهه لمطارده الذي يستطيع اللحاق به قائلاً:

كرهت جذيمة العبدي لما *** رأيت المرء يجهد غير آلي

وقد تعدت مقارنة الصعاليك عدوهم بعدو أعدائهم إلى المقارنة بينهم وبين الحيوانات الني

تشتهر بسرعتها كالطير وحمار الوحش، أما حمار الوحش فقد تردد في أشهر الهذليين دون غيرهم،

من ذلك مايقول صخر الفي واصفا صلحبا له بشدة عدوه فيشبهه بحمار الوحش الذي يهرب إثر

تعرضه للعض قائلاً:

معي صاحب داجن بالغزاة *** لم يك في القوم وغلا ضعيفا

ترى عدوه صبح إقوائه *** إذا رفع المأبضان الحشيفا

¹ المصدر نفسه: ص219.

كعدو أقبّ رباع ترى *** بفائله ونسائه نسوفا¹

وقد ورد أيضا في شعرهم ذكر الظليم والنعامة وهما من أسرع حيوانات الصحراء عند تأبط شرا وأبي الفراش، وقد عقد تأبط شرا بين الظليم والخيل السريعة قائلا:

وحثت مشعوف النجاء كأنني *** هجف رأى قصرا سمالا وداجنا

من الحص هزروف كأن عفاءه *** إذا استدرج الفيفا ومد المغابنا

أزج زلوج هذربي زفافزف *** هزف بيد الناجيات الصوافنا².

ليبين الشاعر أنه أسرع من هذا الظليم.

وأما أبو خراش الهذلي فركز في وصفه على الظلي باعتباره من أسرع الحيوانات في صورة جميلة عندما يقوم الصيادون بمطاردته بالسهام والكلاب ويستطيع النجاة منهم قائلا:

فوالله ما ربداء أو علج عانة *** أقب وما إن تيس ربل مصمم

وثبت حبال في مراد يروده *** فأخطأه منها كفاف مخزم

يطيح إذا الشعراء صاتت بجنبه *** كما طاح قدح المستفيض الموشم

كأن الملاء المحض خلف ذراعاه *** صرا حيه والآخني المحتم

¹ المصدر السابق: ص220.

² المصدر نفسه: ص221.

تراه وقد فات الرماة كأنه *** أمام الكلاب مصغي الخد أصلم

بأسرع مني إذا عرفت عديهم *** كأني لأولادهم من القرب توأم.

فبالرغم من وصف الظبي وسرعته وحذره حتى من الذبابة ف'ن أبا فراش في البيت الأخير يشير إلى أن هذا الظبي ليس أسرع منه، ويتردد ذكر الظبي أيضا عند حاجز الأزدي، وذكر الأرنب والوعل، وكل هذه الحيوانات معروفة بسرعتها وإذا بعض الشعراء يعبرون عن سرعتهم بحيوانات تجري على الأرض فالبعض يشبه نفسه أو يقارن سرعته بطيور السماء كأبي خراش الذي يصف نفسه كأنه عقاب يطارد فريسة في صورة قوية لتلك المطاردة على أرض مستوية من أجل إحضار الطعام لفرخها الذي تركته فوق الجبل في عشه قائلا:

كأني إذا عدوا ضمنت بزي *** من العقبان خائنة طلبوا

جديمة ناهض في رأس نيق *** ترى لعظام ماجمعت صليبا

رأت قنصا على قوت فضمت *** إلى حيزومها ريشا رطيبا

فلاقته ببلقعة براز *** فصادم بين عينيها الجبوبا¹.

ويشير الكاتب هنا في هذه الأبيات أن هذا الموضوع هو الوحيد الذي وجدته ذاكرا العقاب في

شدة العدو، وفي الحقيقة ليس هنا عدوا وإنما كناية عن السرعة.

¹ المصدر السابق: ص222.

— وهنا يتبادر إلى أذهاننا سؤال طرحه الأستاذ يوسف خليف: أين الخيل بين هذه الفصائل المختلفة من الحيوان السريع، ولماذا لم يذكرها الشعراء العداؤون في حديثهم عن العدو¹.

وهذا أمر مهم يجب الحديث فيه لأن رؤية الصعاليك للخيل لم تكن كروية غيرهم، إذ نظروا إليها كعدو لهم، وهم أكثر منها سرعة وهذا واقع يفرضه حالهم آنذاك، لأنهم كانوا يفرون فلا تدركهم الخيل، فكانت تمثل العدو بالنسبة لهم إذ يلاحقهم بها أعداؤهم، فقد: "كانت صلتهم بها صلة عداوة"²، وهي صلة بين المطارد والطريد، وهذا ما أدى بهم إلى السخط على هذا الحيوان السريع، ولذلك "لم يذكر الصعاليك الخيل في حديثهم عن عدوهم إلا مقترنة بأنهم أسرع منها"³، أو أنها ليست أسرع منهم على الأقل، لما نرى عند تأبط شرا لذي يصف أنه أسرع من الخيل، بل وإن أسرع الخيول لا يلحق إلا بالغبار الذي تثيره قدماه عند عدوه قائلا:

يفوت الجياد بتقريبه *** ويكسو هواديهما القسطلا

وفي حديثهم عن عدوهم يسجلون ظواهر طريفة منها حركة ثيابهم وهذه إشارة إلى تلك الثياب البالية كما فعل صخر الغي في وصف صاحب له عند العدو بأن الريح يرفع ثوبه البالي عن ركبتيه قائلا:

ترى عدوه صبح إقوائه *** إذا رفع المأبضان الحشيفا

¹ المصدر السابق: ص 224.

² المصدر نفسه: ص 224.

³ المصدر نفسه: ص 224.

كعدو أقب رباع ترى *** بفاتله ونسائه نسوفا

دون أن ينسوا الحديث عن نعالهم البالية لكثرة سيرهم وعدوهم، يقول تأبط شرا:

بشرثة خلق يوقى البنان بها *** شددت فيها سريحا بعد إطراق

أما الشنفرى فيشير إلى أنه نزعها أثناء عدوه قائلا:

ونعل كأشلاء السمانى تركتها *** على جنب كالنحيزة أغبرا

حتى أن أبا خراش نظم قصيدة كاملة في وصف نعلين جديدتين.

– وفي هذا الموضوع يثير يوسف خليف تساؤلا مهما قائلا: أين شعر السليك في العدو، وهو الصعلوك الذي يضرب به المثل في العدو؟¹، وهذا سؤال جدير بالبحث، فقد تحدث الرواة والمعاصرون للسليك عن سرعة عدوه، وداولوا أخباره بينهم، وقد كان السليك كمادة طريفة بين الشعراء في أثناء حديثهم عن سرعة العدو، ويشير يوسف خليف أن الأرجح في هذا الموضوع بأ شعر السليك في العدو قد فقد، ولكن لماذا شعر السليك فقط، ولماذا حديثه عن عدوه، بينما له أبيات ومقطوعات متناثرة هنا وهناك، وهنا الاحتمال الأرجح أن السليك لم يكن شاعرا مجيدا، وقد سئل الأصمعي قديما عنه فقال " ليس من الفحول"².

¹ المصدر السابق: ص 226.

² المصدر نفسه: ص 227.

_ الغزوات على الخيل:

تحدث الصعاليك عن غزواتهم على الخيل، وليس هناك ما يمنعهم من استعمال الخيل ن وجدت، وليس في الأمر إنقاص من قوة العدو لديهم بل هي صفة معرّف لهم بها، كما عرف عدم العدو على بعض الصعاليك، وقد عرفت بعض أسماء خيل الصعاليك، فاليحموم فرس الشنفرى والنحام فرس السليك، وعروة فرسه فقرمل.

وقد يقرن الصعلوك ذكر غزواته على الخيل بغزواته على الأقدام وأحيانا يذكرها منفردة، وما أكثرها من ظاهرة في شعر عروة، وكثيرا ما توعّد أولئك الأغنياء بأنه سيفزعهم بخيل نشطة تسوق أمامها إبلهم، ومنه قوله:

سيفزع بعد اليأس من لا يخافنا *** كواسع في أخرى السوام المنفر

ويصرح السليك والمعروف بسرعة عدوة حاجته إلى فرسه ساعة إغارة أصحابه الفرسان على أهدافهم فيقول:

وما يدريك ما فقري إليه *** إذا ما الركب في نهب أغاروا.

والشنفرى المعروف بسرعة العدو أيضا يروى عنه أبياتا طريفة يصف فيها هزال فرسه وإقدامها وسرعتها أمام باقي الخيل، فيقول:

ولا عيب في اليحموم غير هزاله *** على أنه يوم الهياج سمين

وكم من عظيم الخلق عبل موثَّق *** حواه، وفيه بعد ذاك جنون¹.

في هذين البيتين كأنما يلحق الشاعر صفة التصعلك بالفرس أيضا فهو يصفه بأنه هزيل طواه الجوع مقدام يؤمن أن القوة في الصبر والغزو، كما يلون الصورة بأن يلحق مغامراته بالجواد فيظهر الجواد بصورة البطل.

وإذا مات الشنفرى وفرغ له صديقه وأستاذه تأبط فرثاه ولم ينسى في ذاك فرسه فقال :

وأشقر غيداق الجراء كأنه *** عقاب تدلى بين نيقين كاسر

يجم جموم البحر طال عبابه *** إذا فاض منه أول جاش آخر.

_ الآراء الاجتماعية والاقتصادية:

يقول الكاتب أنه من الطبيعي أن يعلل الشعراء لمغامراتهم الدامية التي وهبوا لها حياتهم، ويفسروا الدافع وراء ذلك، حتى يكون لحركتهم -الشاذة- سبب وتعليل، وحتى يهيئوا للباحثين في قضيتهم أن يعرفوا الأسباب والدوافع.

ثم يقول الباحث أن حركة الصعاليك قامت على عوامل ثلاث هي: العامل الجغرافي، والعامل الاجتماعي والعامل الاقتصادي، وكان العاملان الاجتماعي والاقتصادي السبب المباشر لقيام هذه الثورة، لاسيما أن الشاعر الصعلوك كان له الاتصال المباشر بهذين العاملين، كما أن العامل

¹ المصدر السابق: ص 229.

الجغرافي كان سببا ضعيفا في نظرهم لأنه عامل تشترك فيه جميع طبقات المجتمع، وعليه فكان كل حرصهم على العاملين الآخرين.

ثم يرى أنه من الطبيعي أن يتحدث الصعلوك عن انقطاع الصلة مع قبيلته، فتلك كانت نقطة التحول بين حياة القبيلة وحياة الشذوذ.

ثم تحدث عن اعتراف الشنفرى صراحة أنه من مخزوم وإن كان أصله من سلامان، إذ أن بني مخزوم ينصرونه إذا نصرهم ولا يخذلوه كما فعل أهله، كما تحدث عن ابن الحدادية ودعاؤه الصادق للذين حموه بعد أن خلعه قومه مستشهدا في ذلك ببيت لابن الحدادية إذ قال:

جزا الله خيرا عن خليع مطرد *** رجالا حموه آل عمرو بن خالد.

كما تحدث الباحث عن أن الصعاليك الخلاء لم ينسوا قصص خلعهم وذكرها مع كل حادث واجههم، وهامو بن حدادية يرتجز قبيل مصرعه ذاكرا أول ما يذكر قصة خلعه وبغض أهله له :

أنا الذي تخلعه مواليه *** وكلهم بعد الصفا فاليه

*** وكلهم يقسم لا يباليه ***

ثم يقول الكاتب أنه لم يجد أي نص للصعاليك الأغربة يوحى أو يشير إلى ظاهرة اللون عندهم إلا نصا واحدا للشنفرى والذي أشار فيه أنه هجين، ولا بد أن السبب في ذلك أن الشعراء كانوا

يجدون في ذلك غضاضة لاسيما أنها كانت مصدر احتقار لهم من المجتمع الجاهلي، أما أعقد العقد التي تحدث عنها معظم الشعراء الصعاليك فهي الفقر، الذي كان السبب الأول والدافع الأقوى لتصلعهم.

لأنّ "أكثرهم كان من الفقراء لا يجدون ما يأكلون، وإذا حصلوا على شيء من غارة أو نحوها، فشيخ القبيلة هو من يأخذ من الغنيمة حصة الأسد وهم لا يأخذون سوى الفتاة"¹
يصور الأعم الهذلي فقره فيقول:

زعمت خناز بأن برمتنا *** تغلي بلحم غير ذي شحم.

لكن يلاحظ أن الذين يشكون من الجوع فإنهم يذكروه مع مغامراتهم المتمردة، أما الذين يتحدثون عن صبرهم عليه فيتحدثون عنه في مجال قوة نفوسهم، ويقدم الخراش صورة نبيلة عن ذلك الجوع، فهو يقول أنه يكتفي بالماء لإسكات جوعه، وأن الجوع يمل منه لطول الانتظار فيذهب عنه، وأنه يفعل ذلك حتى يعيش حياة كريمة لا تسقط في مهاوي المذلة والهوان، والتي فيها الموت أهون من الحياة.

¹ حسين مروة، تراثنا كيف نعرفه، ط1، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت 1985، ص، 334.

ثم يواصل الكاتب بحثه فيقول أن في أحاديث عروة الطويلة عن هوان منزلة الصعاليك الاجتماعية، وكيف يتوارون عن الأنظار خوف المهانة وأنهم لا يسكنون إلا حيث لا يراهم أحدا، وعن ضيق أقاربهم حتى ليوشكوا أن ينكروا قرابتهم لهم.

يرسم السليك صورة إنسانية مؤثرة لما تلاقيه حالاته الإماء السود من ضيم وهوان، فيقول:

أشباب الرأس اني كل يوم *** أرى لي خالة وسط الرجال

يشق على أن يلقين ضيما *** ويعجز عن تخلصهن مالي.

والسليك لا يقصد حالاته القربيات بل يقصد عامة الجنس، ويصور هوان الجنس الأسود فيهما.

من الطبيعي أن يتحدث الشعراء عن آرائهم في مشكلة الفقر وكيف يكون السبيل لحل هذه المشكلة، ولو كلفهم ذلك حياتهم، ولقد صوروا هذه المشكلة وسجلوا آراءهم الاجتماعية والاقتصادية في ذلك تسجيلا صادقا فيه براعة، فالصعاليك يكرهون تلك الطائفة التي قبلت الذل والهوان، تقنات على فضلة الغني وتجد فيها ما يسد رمقها وتعد ذلك كل الغنى، لا يريد الشعراء الصعاليك تلك الفئة الضعيفة الفئة التي لا تفكر إلا في نفسها ولا تريد الخروج من حياة المهانة، بل يريدون ذلك الصعلوك المغامر قوي النفس والجسد الصعلوك الذي يهب حياته وقت الشدة، وهم حريصون كل الحرص على التفريق بين هاتين الفئتين من الصعاليك، كما وقف الشاعر

الصعلوك يدافع عن قضيته وعن مذهبه، ولعل عروة بن الورد كان أبرز صعلوك استعمل شعره للدعوة إلى مذهبه، خاصة أنه يعتبر نفسه أبو الصعاليك.

وهذه النزعة المذهبية لدى عروة بن العبد إنما هي " نزعة اكتسبها من انتسابه إلى الصعلكة، والقاسم المشترك فيها حب الموت والمغامرة ومواجهة التحديات، وآية ذلك أنه قتل وحده تسعة وتسعين نفساً من أعدائه انتقاماً لمقتل أبيه وثأراً لوالد زوجته.¹"

الخطوة العملية في فلسفة الصعاليك هي الغزو والإغارة وكثير في شعرهم الحديث عن الجانبين التنفيذي والتشريعي لهذه الخطوة، كما تحدث الصعاليك عن الهدف المرجو من هذه الغزوات في شعرهم كما حددوا الطوائف التي كان الغزو موجه لهم، وقد جمعهم تأبط شرا في ثلاثة طوائف أصحاب المواشي، أصحاب النوق الحوامل وأصحاب الأراضي الخصبة فيقول:

فيوما على أهل المواشي وتارة *** لأهل ركب ذي ثميل وسنيل

ولكن أرباب المخاض يشفهم *** إذ اقتفروه واحداً أو مشيعا.

وأولئك الصعاليك الذين خلعتهم قبائلهم يحرصون أشد الحرص على الانتقام من أولئك الذين كانوا سبباً في تصعلكهم، ومنه نجد لهم أهدافاً أخرى غير الأغنياء وغير الغزو والإغارة ولا بد أن يبلغ مثال على ذلك حقد الشنفرى على بني سلامان.

¹ سامي يوسف أبو زيد، منذر ذيب كفاي، الأدب الجاهلي، دار المسيرة للنشر والتوزيع، ط1، 2011، ص240.

تحدث الشعراء الصعاليك عن الغاية من هذه الخطة الدامية التي وهبوا لها حياتهم، وهي الغنى، وسجل الأعم الأسباب التي يريد الغنى لأجلها وهي ثلاث: أولاً أن يكون في غنى عن الناس، ثانياً لإعانة الناس إذا حلت بهم عزيمة، وثالثاً يعدها للأضياف إذا ما حل الجذب.

_ أحاديث التشرد:

يقول الباحث أن تلك الحياة الواقفة في وجه المجتمع والمتمردة عليه كان نتاجها فقدان الطمأنينة والتشرد، وقد تحدث الشعراء عن تشردهم ذاك في تلك الصحراء الموحشة واهتدائهم فيها دون دليل واتخذوا من هذا ماد. للفخر بأنفسهم، ويفتخر تأبط شرا بكرمه وتشرده ويمدح صديقا له فيبدأ مدحه بذكر تشرده أيضاً، ويفتخر عروة باهتدائه في الفلاة الموحشة التي يعرض سالكها نفسه للخطر دون عون أو رفيق.

والصورة عند أبي الخراش تظهر بأنه يهدي أصدقاءه من الصعاليك في الفلاة في الليالي المظلمة فيقول:

وإني لأهدي القوم في ليل الدجى *** وأرمي ذا ما قيل هل من فتى يرمي.¹

كما يتحدث الصعاليك عن أماكن تشردهم في الصحراء، فيتحدث تأبط شرا عن شعب في الصحراء نائية مهجورة ويفخر أنه اهتدى فيها دون دليل، ويتحدث الشنفرى عن وادي في عمق

¹ الشعراء الصعاليك مصدر سابق: ص 242.

الصحراء ملتف بالشجر مليء بالوحوش يخشاه الشجعان وأنه أقدم على خوضه في وقت مبكرة قبل أن يتطاير الندى عن أشجاره.

نتيجة لهذا التشرّد ورد في أشعار الصعاليك حديث كثير عن حيوانات الصحراء ووحوشها، وبالخوض في حديث الشعراء وجد الكاتب أنهم تعرضوا بالحديث لسبعة وعشرين نوعا من الحيوانات باختلاف أنواعها فمنها الذئب والضبع والسبع والضب والثعلب وغيرها من الحيوانات، كما تعرضوا للحشرات فمنها النحل والجراد وذكروا الجن والوحش أيضا، ومن الطبيعي ألا يتحدث الشعراء عن هذه الحيوانات في نفس الدرجة بل بتفاوت لأن بعضا من هذه الحيوانات شكل عنصرا طبيعيا في حياتهم ومنه نتج هذا التفاوت، وقد استغل العداءون منهم تلك المجموعة من الحيوان السريع لوصف سرعتهم في العدو.

لا يتوقف الشعراء عند هذا الحد في وصف الحيوانات بل تجاوزوا ذلك إلى الوصف الدقيق لبعضها ما يبين أنهم ألفوها وتقرّبوا منها ليعرفوا طبائعها، ففي شعر عروة وصف للأسود وغالب شعر الأعم عن الضباع وجرائها التي تبدو كأنها تلبس ثوب رهبان، ولا يخلو شعر تأبط من ذلك أيضا، وأما الشنفرى فلا يخشى على جسده من الضبع بل يوصي في استهزاء أن ترمى فريسته للضباع وهيئ لها وليمة شهية، ولعل أطرف ما في شعر الصعاليك من هذا الباب أحاديث الجن والغيلان.

2_2/ الشعر خارج دائرة الصعلكة:

أ_ آثار القبلية في شعرهم:

يقول الباحث أن المتصفح لشعر الصعاليك سيصادف مجموعة أشعار قيلت في أغراض قبلية تتسم بسمات الشعر الجاهلي حتى أنها تبدو بعيدة عن شعر الصعاليك، ذلك أن الصعاليك تنصلوا من التزاماتهم القبلية.

وليس بالأمر الغريب أن نجد هكذا سمات في شعر الصعاليك خاصة أن حياتهم مرت بدورين الأول هو حياة ما قبل التصعلك والتي كان فيها الشاعر مرتبطا بالقبيلة، والدور الثاني الذي هو محل الدراسة وهي حياة التصعلك، وعليه فمن الطبيعي أن تكون موهبة الصعلوك قد اكتملت في الدور الأول فحجاءت القصائد على ذلك النحو.

وقد يجد المتصفح لشعر الصعاليك مجموعة قليلة من المقطوعات، فهناك مجموعة من المقطوعات من التي تصب في بحر القبلية خارج دائرة التصعلك لعروة والسليك ولصخر الغي أبياتا في مقطوعتين يناقض فيها شاعرا ويهدده بكثرة قومه الذين ينصرونه فيقول:

وَحَقُّضْ عَلَيْكَ الْقَوْلَ وَاعْلَمْ بِأَنِّي *** مِنْ الْأَنْسَى الطَّاحِي الْحُلُولِ الْعَرْمَرِ

أَبْتُ لِيَّ عَمْرُو أَنْ أَضَامَ وَمَا زُقُّ *** وَقَرْدٌ وَلِحْيَانٌ وَسَهْمَا فَاسْلِمُ¹

¹ المصدر السابق: ص 249.

كل ما وصلنا من للسليك مقطوعة من ثلاثة أبيات يحذر فيها قومه، ومن شعر حاجر خمس قطع يظهر فيها اندماجه الواضح في المجتمع القبلي ويتحدث بلسانهم مثله مثل أي شاعر جاهلي، ومنها بيتين يتوعده فيهما أعداءه ويهددهم بأبطال من قبيلته المسلحين بالرماح والسيوف فيقول:

ستمعنا منكم ومن سوء صنعكم *** صفائح بيض أخلصتها الصياقل

وأسمز خطي إذا هز عاسل *** بأيدي كماء جربتها القبائل.

وأما بن الحدادية فيمكن حصر كل ما وصلنا منه في ثلاثة مقطوعات بعدما حذف الباحث بائيته المشكوك فيها والتي قد أشار إليها في الفصل السابق، وشأنه شأن سائر الشعراء القبليين يفخر بانتصار قومه على الأعداء ويسجل أسماء الأبطال في شعره، ويسجل عودتهم بالإبل والنساء اللاتي سيوهن ويعتز بقومه خلاله، ثم يختم الباحث قوله بأن هذا النوع من الشعر قليل جدا كما كان قد أشار سابقا.

ب_ المجموعة الإسلامية في شعرهم :

يقول الباحث حين النظر في شعر الصعاليك وبالإضافة إلى ما تم ذكره في سابق الحديث نجد مجموعة قليلة نظمها مخضرموا الصعاليك، هي المجموعة الإسلامية ومن هؤلاء الشعراء أبي الخراش وأبي الطمحان.

قبل الخوض في الحديث عن هذه المجموعة من شعر الصعاليك أشار الباحث إلى ملاحظتين مهمتين، الأولى أن شعر أبي الطمحان ليس من السهل تمييزه ذلك أن الرواة لم يحددوا فترة كتابته وأنه ما من إشارة فيه توحى بزمن كتابته عدى بيتين اثنين أشار فيهما إلى شيخوخته، والملاحظة الثانية ان كل ما وصلنا من شعر فضالة بن شريك إسلامي فيه إشارة إلى إسلامه أما شعر التصعلك فلم يصلنا منه شيء، مع أنهم يذكرون أنه كان شاعرا صعلوكا فتاكا مخضرمًا، وهي ظاهرة وقف أماها الباحث طويلا ليصل إلى فرضيتين، الأولى أن فضالة لم يكن قد نضج فنيا في الجاهلية، وأما الثانية أنه يوجد له شعر في التصعلك لكن لم يصلنا لظروف خاصة، والباحث رجح الاحتمال الأخير لأنه أقرب للمنطق، حتى أن الظروف الاجتماعية التي قيل فيها كانت لتمنعه الوصول.

المجموعة الإسلامية من شعر الصعاليك خلت من الموضوعات التي عرف بها داخل دائرة التصعلك وهذا أمر طبيعي لان الإسلام غير الحياة الاجتماعية والاقتصادية وقلب الموازين، كما أنه هدّب الشعر ولم يعد للتصعلك مجال فيه، وقد انحصرت مواضيع الشعر في مواضيع ثلاثة هي: المدح، الهجاء والثناء.

أما المدح والهجاء فيكاد بن فضالة أن يستأثر فيهما، ويبدو أنه وجد فيهما ما يغنيه عن التصعلك، فقد اندمج في الوسط السياسي الأموي واندمج مع شعرائه حتى أصبح شاعرا أمويا يمدح فيهم ويهجو أعداءهم خاصة يزيد بن معاوية حتى تشكل رابط وثيق بين يزيد وفضالة، أما

الهجاء فقد وجهه مرة إلى عاصم بن عمر بن الخطاب، ومرة إلى رجل من المسلمين أودعه ناقته فلما رجع كن سفره طلبها منه فقال سرقت، ووجهه مرة إلى عبد الله بن مطيع ومرة إلى عبد الله بن الزبير.

روي لابن الطمحان بيتان يمدح فيهما يزيد بن عبد الملك فقال:

يكاد الغمام الغر يريد ان أرى *** محيا بن مروان وينهل بارقه

يطل فتبت المسك في رونق الضحى *** تسيل به أصداغه ومفارقة.¹

أما الرثاء فقد اختص به أبو الخراش ذلك شأنه شأن الهذليين الذين عرفوا بمقدرتهم الرثائية الفائقة، وقد عرف عن أبي الخراش انه يرثي أصدقاءه في الجاهلية، ويرثي أبي الخراش صديقه بمعان مألوفة في الشعر الجاهلي، وهكذا تمتزج صورة رائعة لونها التصعلك والإسلام، ولأبي الخراش أبياتا يصور فيها هجرة ابنه خراش مع المسلمين للغزو، وهو يتحدث مع ابنه ويظهر في حديثه روح الإسلام فليس من البر أن يهاجر للغزو من أجل الأجر والشهادة ويترك أبوه الذي أصابه الكبر فيقول:

ألا فاعلم خراش أن خير ال *** مهاجر بعد هجرته زهيد

فإنك وابتغاة الخير بعدي *** كمنحسوب البنان ولا يصيب.

¹المصدر السابق: ص254.

3/ الظواهر الفنية في شعر الصعاليك:

أ_ شعر مقطوعات:

في هذا الفصل من الكتاب تطرق الكاتب إلى جانب البناء الخارجي لشعر الصعاليك، حيث يقول بأنه نظرا للزاوية التي يظهر منها هذا الشعر فإنه يمكن الحكم عليه بأنه شعر مقطوعات، وأخذ بالاستثناء مجموعة من القصائد مثل تائية الشنفرى ذات الأربعة وثلاثين أو الخمسة وثلاثين بيتا، ولامية عمرو ذي الكلب ورائية عروة بن الورد وقافية تأبط شرا، وغيرها من القصاد الطوال لشعراء الصعاليك، يقول الناقد لو أنه استثنى تسع قصائد من هذه المجموعة الأخيرة واستثنى معها مجموعة القصائد المطولة والتي قيلت في أغراض عامة وقد سبق أخراجها في الفصل السابق من دائرة شعر التصعلك، فإنه سيجد نفسه أمام مجموعة من المقطوعات التي يتراوح عدد أبياتها بين البيتين والسبعة أبيات، وأمام مجموعة لا يتجاوز عدد أبياتها العشرون بيتا كفائية الشنفرى، وأمام مجموعة من الأبيات الفردية والتي قد ترجع إلى قصائد لم تصلنا، ومن ذلك شعر أبي الطمحان الذي لم يصلنا منه إلا بعض المقطوعات القصيرة أقلها بيت واحد وأطولها أربعة أبيات، ثم شعر حاجر الذي لم يصلنا منه إلا ميميته والتي لا يزيد طولها عن التسعة أبيات، ثم شعر السليك الذي لم يصلنا منه إلا بيتين أو ثلاثة أبيات، وابن الحدادية إذا استثنينا له قصيدتين في الغزل بسبب خروجها من دائرة التصعلك فإننا لن نجد له إلا حوالي التسعة أبيات، وقائمة الاستثناءات طويلة، لنصل في الأخير إلى مجموعة من المقطوعات يتراوح طولها بين البيتين والستة أبيات.

هنا يطرح الناقد سؤالاً جوهرياً، ما السر في ذلك؟

يقف الكاتب بين أمرين، أما الأول أن يفترض أن شعر الصعاليك الواصل إلينا ناقص ليس من ناحية عدد القصائد فقط بل من ناحية عدد الأبيات أيضاً، ولا بد أن ذلك راجع لمجموعة من الأسباب، الأول منها أن تتم سرقة ونسبته إلى غير أصحابه، والثاني بالعودة إلى ما يقوله مؤرخو الأدب العربي هو ضياعه كضياع معظم الشعر الجاهلي، أما الثالث فهو عدم حرص أو اهتمام قبائل الشعراء بشعر الصعاليك ولو حرصت القبائل على ذلك فإن الوصول إليه ليس بالأمر السهل.

وأما الأمر الثاني فهو تقبل الحقيقة الماثلة أمامنا والتي تبين أن شعر الصعاليك في مجمله شعر مقطوعات، ولا بد أن هذا راجع إلى طبيعة حياة شعراء الصعاليك نفسها، حياة التنقل والكفاح من أجل العيش فلا يفرغ الشاعر الصعلوك للفن فيطيل فيه ويعيد النظر فيه كغيره من الشعراء الأرستقراطيين والذين كان شغلهم الشاغل هو الشعر والنبوغ فيه.

هل يتفرغ الشاعر الصعلوك لفنه كما تفرغ زهير مثلاً أو كما تفرغ امرؤ القيس في حياته اللاهية

الفارغة؟¹

¹المصدر السابق: ص261 بتصرف.

أبدأ، لأن الشاعر الصعلوك كان له شعور عميق بقصر حياته وأن الموت له بالمرصاد في كل لحظة من حياته، فكان حاضرا في شعرهم كحضوره في حياتهم، وعليه فإن شاعرا بهذه الحياة لا يكاد ينتهي لنفسه كيف ينتهي لشعره ليطول ويعيد النظر فيه؟

ولا بد أن ناتج هذه الحياة هو شعر مقطوعات يروح بها الشاعر عن نفسه ويلقي بما يتكتم في صدره من غيض وألم وسخط على الحياة، أما تلك القصائد الطوال لشعراء الصعاليك فقد تعود إلى فترات استراح فيها الشاعر وتفرغ لحياته فأخرج من رواسيها ذلك الفن المجود والرائع.

يصرح الكاتب أنه يميل إلى الرأي الثاني وهو الأقرب إلى الواقع دون إنشاء فرضيات تتقبل القبول كما الرفض.

ثم يصنع الكاتب احتمالا جديدا وهو الطريقة التي وصل بها الشعر إلينا، يقول أن الشعر وصل متفرقا عبر مصادر مختلفة اقتصر كل مصدر على ما يستشهد به منه، ولو أنه وصلنا مجموعا في دواوين لكان فيه من الطول ما نرغب، لا يسعنا سوى إبداء الأسف على عدم الحصول على مجموعة شعر اللصوص التي جمعها السكري وعلى مخطوط ديوان تأبط شرا الذي جمعه بن جني، ولا نجد بين أيدينا سوى مجموعة من الدواوين المتفردة لطائفة من شعراء الصعاليك: صخر الغي والأعلم، عمر ذي الكلب وأبي خراش في مجموع شعر الهذليين ثم الشنفرى وعروة بن الورد في ديوانين مستقلين.

وبالنظر إلى هذه الدواوين الأخيرة نلاحظ انتشار المقطوعات عبرها، فنجد من ديوان صخر الغي ثلاث قصائد طوال من مجموعة شعره التي تبلغ ثلاثة عشرة قطعة منها قصيدة خارج دائرة التصعلك، وفي ديوان الأعم قصيدتين طويلتين من مجموعة شعره التي تبلغ ست قطع، وليس لأبي خراش سوى سبع قصائد منها اثنان خارج دائرة التصعلك من مجموعته التي تبلغ اثنين وعشرون قطعة، ثم الشنفرى إذا استثنينا اللامية التي تنسب إليه أحيانا ويشك في نسبتها إليه في أحيان أخرى، فإننا لا نجد في ديوانه المخطوط سوى قصيدتين طويلتين هما تائيته وفائيته وما عداهما مقطوعات لا تتجاوز الست أبيات.

يصل الكاتب في النهاية إلى أن ما تقدم به من فرضيات يفسر سبب انتشار شعر المقطوعات في شعر الصعاليك وأنه ما من داع إلى تكثيف الفروض والإحتمالات.

ب_ الوحدة الموضوعية:

تطرق الكاتب إلى الوحدة الموضوعية في شعر الصعاليك، يقول الكاتب أن المتصفح لشعر الصعاليك سيلاحظ أنها مبنية على وحدة موضوعية بحيث تمكن القارئ من وضع عنوان خاص بكل قطعة، وهذه الأخيرة ظاهرة لم يعرفها الشعر الجاهلي الذي يبدأ في معظم نصوصه بالمقدمة الطللية، ثم ينتقل من موضوع إلى موضوع حتى نهاية النص، ثم إن المتبع لشعر الصعاليك لا يكاد يخطئ الوحدة الموضوعية في كل مقطوعاته، ولن يجد أية صعوبة في وضع عناوين لها، فبائية الشنفرى "وغارة على العوص" ورائية تأبط شرا (احتيال) وفائية السليك العاشية (المدعورة)،

وغيرها من قصائد الشعراء الصعاليك، والتي يمكن تسمية كل واحدة منها على حدى دون الشعور بالتفاوت بين العناوين والنصوص.

فيقول غازي ضليعات في هذا الصدد " فوحدة الغرض نعني بالسمة، أن لكل قصيدة مطولة أو مقطوعة قليلة الأبيات فكرة تنظمها أو غرضا يربط أولها بآخرها".¹

طرح الكاتب بعد هذا الشرح مجموعة من التساؤلات أهمها ما موقف القصائد الطوال من هذا؟ وهل استجابت كغيرها من شعر التصعلك؟

الملاحظ في هذه القصائد الطوال يجد أنها تحوي أغراضا متعددة، لكن يكتشف لاحقا أن هذا التعدد في الأغراض يرجع إلى أصل موضوعي واحد، فليس التعدد هو تعدد المواضيع وإنما تفرع في الأغراض، فلامية ذي الكلب الهذلي ورغم تعدد أغراضها إلا أن موضوعها يبقى واحد فالحديث إلى صاحبتة عن غزواته و التربص بالأعداء وتربصهم به، راجع في الأخير إلى موضوع واحد هو الصراع بينه وبين أعدائه، ورائية بن الورد لا تبتعد عن هذا الأخير فرغم تعدد أغراضه بين الصعلوك العامل والصعلوك الحامل والمذهب في الغزو إلا أنها تصب في بحر واحد هو فكرة التصعلك، ثم ميمية أبي الخراش الذي يتحدث تارة على فقره ثم تارة أخرى عن كرمه وصبره وقوته وسرعة عدوه، إلا أنها تصب في بحر المفاخرة بل ونستطيع أن نسميها ب (مفاخرة الصعلوك)، وهكذا يمكن أن

¹ غازي ضليعات، عرفات الأشقر: الأدب الجاهلي قضياه، أغراضه، أعلامه، وفنونه، دغر الفكر المعاصر، بيروت، ط1 2010، ص، 290.

يمضي القارئ والمتصفح لشعر الصعاليك وللقصائد الطوال بحيث يرد الأغراض المتعددة إلى موضوع واحد يمكن أن يكون عنوانا أساسيا لها.

ثم يعود الكاتب ليضع حجة أخرى تناقض سابقتها فيقول أن الحكم السابق أناني ولا بد أن يعاد النظر فيه ولا بد. أن يخفف لأن هناك قصائد - وإن كانت قليلة - لا تخضع للحكم السابق، كتائية الشنفرى وقافية تأبط شرا وفائية صخر العلى وداليتة لا تخضع هذه الأربع للوحدة الموضوعية بل تبدل الموضوع.

يخلص الكاتب في الأخير إلى استنتاج حول ظاهرة التقليد للشعر القديم أو لمواضيعه، فالناقد يرى أن الشاعر الصعلوك حاول مرات عدة أن يبقى متصلا بالقبيلة لربما يضفر منها العفو والاحترام خاصة أن القبائل تحرص كل الحرص على هذا الجانب، ثم إلى أن هذه الظاهرة وإن وجدت فهي قليلة جدا وأن الحكم السابق على شعر التصعلك بأنه موضوعي لا ضرر منه بما أن القصائد الطوال قليلة ونادرة الوجود.

ج_ التخلص من المقدمات الطللية:

يقول الكاتب أنه إذا تم استثناء القصائد القليلة السابقة الذكر فإنه قد يصل إلى ظاهرة جديدة وهي التخلص من المقدمة الطللية، وهذا أمر عادي ذلك أن الشاعر الصعلوك يحرص على الوحدة الموضوعية في شعره، فالصعلوك ينظر إلى أن المقدمة الطللية تخل بالوحدة الموضوعية، وفي هذا

الموضوع يقول غازي ضليقات بأنه قد "قل الطلل في شعر الصعاليك وحل محله حوار حي يعقده الشاعر مع صاحبتة أو زوجته"¹

ثم يقول الباحث بأن الشاعر اتخذ له مذهبا خاصا بعيد كل البعد عن الشعر الجاهلي مذهبها سماه بجواء الخالدة، وليست حواء بالحبيبة الراحلة التي كتب عنها شعراء الجاهلية، إنما هي المرأة المحبة لفارسها والتي تدعوه دائما للحرص على حياته، تلك الحبيبة الضعيفة التي يظهر صاحبها بجوارها في صورة البطل الوثاق من نفسه والمؤمن بمذهبه، الحبيب الراض للحياة الذي تدعوه إليها حبيبته بأدب، يضع الشاعر الصعلوك صورة رائعة الجمال يتقابل فيها مع حبيبته، وهذا الفن قريب إلى حد ما إلى آداب فرسان أوروبا في القرون الوسطى، حيث يضع الشاعر كل بطولاته بين يدي سيدة، هذا التفرد أو الاختلاف الحاصل هنا يجعل من شعر التصعلك مميزا بمقدمته الخاصة والتي يمكن تسميتها بـ "مقدمة الفروسية في شعر الصعاليك" والتي تقابل المقدمة الطللية في الشعر القبلي.

هذه المقدمة حاظرة في بائية الشنفرى والتي سبق للكاتب أن سماها بغارة على العوص، حيث يستهل الشنفرى قصيدته بالحديث إلى المحبوبة رافضا في ذلك الحياة التي تدعوه إليها وطلبه منها أن لا تثبط عزيمته عما هو ماض إليه فالموت واحد بالنسبة إليه فلم لا يموت بطلا.

¹غازي ضليقات، عرفات الأشقر: الأدب الجاهلي قضياه، أغراضه، أعلامه، وفنونه، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط 1
2010، ص، 290.

ميمية عمر بن بركة استهلها بالحديث إلى صاحبتة التي تنصحه بالحفاظ على حياته فيرفض،
فكيف ينام الليل من وهب حياته للبطولة وكان مطلع القصيدة:

تَقُولُ سُلَيْمَى لَا تَعْرِضْ لِتَلْفَةٍ *** وَلَيْلِكَ عَنْ لَيْلِ الصَّعَالِيكِ نَائِمٌ

وَكَيْفَ يَنَامُ اللَّيْلَ مِنْ جُلٍّ مَالَهُ *** حُسَامٌ كَلَوْنَ الْمِلْحِ أَيْضُ صَارِمٌ.

ثم يستهل السليك بن سلعة قصيدته بتحذير صاحبتة له وطمأنته لها بأنه فارس لا يهاب
خطوب، ومطلعها:

تَحْذِرُنِي أَنْ أَحْذِرَ الْعَالِمَا خَشَعَمَا *** وَقَدْ عَلِمْتُ أَنِّي أَمْرٌ غَيْرُ مُسَلِّمٍ.

ونجد هذه الظاهرة بكثرة عند عروة بن الورد، فلا تخلو له قصيدة من خطاب حبيبته ولومها له
وحرصها على حياته، فيحلو لعروة أن يجعل زوجته تلومه في حياة المخاطر التي يحياها ويحلو له هو
أن يلومها على لومها، وعروة بذلك يحقق هدفين الأول إبراز جزع الزوجة وخوفها عليه، وهذا
يرضي كل ذكر إذا أتى من أنثاه وثانيهما أن يطلق من اللوم تمجيد حياة السعي والمغامرة جاعلا
من نفسه مثالا حاثا للآخرين على الاقتداء به¹

ومن الأبيات نجد:

¹أبي سعيد عبد مالك بن قريش الأصمعي، شرح الأسمعيات، تح، سعد ضناوي، دار العلمية بيروت لبنان، ط1، 2001، ص، 43،44.

تقول سليمي لو أقمت لسرنا *** ولم تدرِ أتي للمقام أطوفُ.

ثم في البيت التالي يصف الدمع المنهار من عينيها:

أرى أمَّ حسنَّ العُدَاةِ تلومني *** تخوِّفني الأعداءَ، والنفسُ أخوفُ.

فيرد في قوة رقيقة بأنه لا يفعل هذا لأجله وإنما لأجلها هي فيقول تارة:

ذريني أطوفُ في البلادِ لعلني *** أخليك أو أغنيك عن سوءِ محضِرِ

عروة بن الورد يعد خير مثال في هذه الظاهرة هذا لكثرة استعماله هذا اللون من الأحاديث.

ثم ينتقل الكاتب ليقول أن هذه الظاهرة قد تنحرف من الحوار بين صاحبة والشاعر الصعلوك لتتحول إلى حديث الشاعر إلى حبيبته أو صاحبتة، فيحدثها عن شيء ينوي فعله أو يفعله أو قد فعله.

كأن قد فلا يغررك من أن تمكني *** ملكتُ طريقاً بيّنَ برّبعِ فالسردِ

وإني زعيم أن أَلْفَ عَجَاجِي *** على ذي عجاج من سلامان أو بُردِ.

وقد ينحرف إلى أن يكون حديث صاحبة عن الشاعر الصعلوك بسوء فيرد:

تقول سُليمي لجارتها *** أرى ثابتاً يفناً حوفاً

لها الويل ما وجدت ثابتاً *** أَلْفَ اليدين ولا زُملاً

ألا عتيت على فصار متني *** وأعجبها ذوو اللمم الطوال

فإني بابتة الأقوم أرى *** على فعل الرضىء من الرجال.¹

هذين الانحرافين طبيعيين فالأول حديث الشاعر لحبيته والمفاخرة ببطولاته والثاني المرأة مفتونة بالجمال والمال وهذا وارد أيضا.

ثم إن السكري في شرحه لأشعار الهذليين يروي لعمر ذي الكلب وأبي عبد الله والأصمعي، فتبدأ قصيدة عمر ذي الكلب وأبي عبد الله بيتين من الغزل، أما الأصمعي فذكر حديثه مع صاحبه والملاحظ هنا أن الرواة لا ينسبون القصيدة إلى شعر الغزل وإنما يرو أن طبيعة المقدمة في شعر التصعلك يجب أن تكون حديث الشاعر إلى صاحبة ليس أن تكون غزلا فهو غير مألوف في شعرهم.

ثم يعرض الكاتب مشكلة جديدة حيث يقول أن المشكل تأخذ في الظهور، إذ نواجه بيتين أحدهما للسليك في لسان العرب والثاني لتأبط شرا في معجم البكري ويظهر عليهما طابع المقدمة الطللية من خلال ثلاث نقاط أولا: أنهما مصرّعان مما يظهر أنهما مطلعاً لقصيدة، ثانيا: الصور من مطالع الجاهلية حيث يحرص الشاعر على ذكر أسماء الأماكن، وثالثا: الخيال الواضح للرحلة والركوب في البيتين مما يوحي بأنه شعر جاهلي قبلي.

¹ الشعراء الصعاليك مصدر سابق: ص 269.

لو أنه ثبت أن البيتين حقا لتأبط والسليك وليس تلفيق من قبل الرواة والجغرافيين العرب في تلك الفترة، الواجب أن نعتبر البيتين من الأبيات الشاذة التي تخرج عن دائرة التصعلك وربما لو وصلتنا القصائد كاملة لكان الحكم يختلف، وليس للبيتين في هذا الحال أي تأثير في الحكم السابق بأن الشاعر الصعلوك تخلص من المقدمة الطللية وصنع لنفسه مقدمته الخاصة بفنه.

د_ عدم الحرص على التصريح:

ظاهرة عدم الحرص على التصريح متصلة بالبناء الخارجي للشعر، وقد أقر الكاتب أنه توهم في البداية أن هذه الظاهرة متصلة بالشعر الذي داخل دائرة الصعلكة ثم بعد الاطلاع على عدد من النصوص تبين له أن هذه الظاهرة توشك أن تكون مطردة في جل شعر التصعلك سواء شعر مقطوعات أو غيرها، لولا وجود مجموعة قليلة جدا لكان الحكم مطلقا، ثم إن هذه الظاهرة لا تخص شعرا دون آخر من شعر الصعاليك ولو كانت كذلك لالتمس لها تعليلا في مجموعة خاصة بها، لكن انتشارها بالصورة "اللا قاعدية" جعلته يلتمس لها تعليلا آخر وهو أن هذا التغيير عائد إلى طبيعة الشاعر الصعلوك الثائرة على كل ما يعود إلى القبيلة مما جعل هذه الثورة تظهر في شعره، رغم أنه بقي مرتبطا بها في بعض المواضع.

وصل الكاتب إلى مجموعة من الملاحظات مفادها أن شعر كل من أبي الخراش، الأعلم، عمرو ذي الكلب، الشنفرى، وغيرهم من الشعراء الصعاليك يخلو من التصريح عدى بعض الاستثناءات لبعض الشعراء كالسليك، أبي الطمحان وحاجز، وحين النظر في هذه الملاحظات يتبادر تساؤل

حول انتشار التصريح عندك الصعاليك، المفروض أن تنتشر هذه الظاهرة في القصائد طوال لكن أن تنتشر في المقطوعات التي لا تتعدى البيتين فهنا تكمن الغرابة.

ثم يصل الكاتب في الأخير إلى تعليل لهذه الظاهرة هو أن يكون هذا التصريح جاء عفوا دون قصد من الكاتب أو أن تكون هذه الأبيات جزء من قصائد طوال لم يصلنا منها إلا القليل، خاصة قيلت خارج دائرة التصعلك، والاحتمالين واردين.

هـ_ التحلل من الشخصية القبلية:

كان لظاهرة التحلل من الشخصية القبلية النصيب الوافر في تحليل الكاتب إذ يرى بأنها ظاهرة أساسية تفوق سابقاتها من الظواهر، وهي "ليست بالغريبة عن شعر التصعلك"¹، ذلك أن الشاعر الصعلوك ينفر ويرفض ويثور بالأساس على القبيلة وقوانينها، وعليه فإن هذه الأخيرة متوقعة جدا، وبما أنه كان هناك انقطاعا اجتماعيا وثورة على القبيلة فالانقطاع الفني متوقع أيضا، وعليه لن يكون الشاعر لسان حال قبيلته، وشعره سيحمل رسالة خاصة تعبر عن الشاعر نفسه، وبهذا تنتج ظاهرة جديدة يمكن تسميتها بظاهرة الوضوح الفني لشخصية الشاعر الصعلوك.

لكن في المقابل لن يتفرد الشاعر الصعلوك بهذه الشخصية بل يشاركه جماعة ممن يؤمنون بمذهب التصعلك، وعليه فإن شخصية الشاعر الصعلوك ستكون شخصية "جماعية"، وليس القصد بهذا أن يكون الشاعر يشبه باقي الشعراء كتشبه الشاعر القبلي في قبيلته بل القصد أن

¹المصدر السابق: ص272.

يتشبه بالشخصية العامة لأفراد شعر التصعلك، وعلى العموم فإن شخصية الشاعر الصعلوك تتميز بالتفرد واعتزازه بالقدرة على الوقوف في وجه المجتمع، رغم حرصهم التام على البقاء كتلة واحدة لنصرة مذهبهم الخاص، ولعل من أقدر الشعراء تمثيلاً لهذه الظاهرة عروة بن الورد وجماعته فهو يتحدث بلسان الجماعة، ثم جماعة تأبط شرا التي كانت تشكل كتلة واحدة.

لا بد أن الضمير "نحن" البادي في شعر التصعلك إنما هو خاص بجماعة التصعلك وهو بعيد عن النحن الخاصة بالشعر القبلي، فمما لا ريب فيه هو أن الصعاليك تخلصوا من الشخصية القبلية في شعرهم كما تخلصوا منها في حياتهم، فكانت الثورة فنيا واجتماعيا، ومنه أصبحت هذه الجماعة تحمل لقب "أصحاب المذهب الذاتي في الشعر الجاهلي".

و_ القصصية:

ظاهرة سادسة وهي ظاهرة القصصية في شعر التصعلك، يقول الكاتب "أن هذه الظاهرة هي نتاج عن الظاهرة السابقة_ التحلل من الشخصية القبلية_ وهذه الظاهرة هي تبين أن شعر التصعلك في عمومها هو شعر قصصي"¹، حيث يقوم الشاعر من خلال نصه بسرد قصص وأحداث وقعت معه في حياته، فذلك التشرذم والهروب يجعل الشاعر يواجه مجموعة من الحوادث التي تكون دواء شافيا للفن القصصي في الشعر.

¹المصدر السابق: ص 278، 279 بتصرف.

ثم يعود الكاتب إلى ظاهرة سجلها سابقا وهي ظاهرة الوحدة الموضوعية ليستدل بمجموعة من العناوين التي كان قد أطلقها على مجموعة من القصائد فيصل إلى أن قصيدة "الغاشية المدعورة" و"غارة على العوص" و"احتيال" وغيرها هي مجموعة من العناوين يمكن أن تحمل في طياتها مجموعة من القصص، ثم أن بائية السليك ما هي إلا قصة في قالب شعري تروي أحداثا عاشها الشاعر رفقة صاحبه، ومفضلية الشنفرى "البائية" إذا خرجنا من مقدمتها الغزلية فإننا نواجه مجموعة من الأحداث التي تشكل قصة في قالب شعري، ويمكن أن تطبق عليها دراسة نقدية لحالة الشاعر النفسية البادية من خلال القصيدة ويمكن أن تسلك في عداد القصص النفسية التي يعرفها العصر الحديث، وهكذا يمكن المضي مع باقي شعر التصعلك ويمكن أن نطلق عليه مسمى "أقاصيص الصعلكة".

ثم يبين الباحث أن الأمر قد يتجاوز دائرة الصعلكة وينتقل إلى شعر الهذليين في الرثاء، حيث يقول بأن الهذليين اتخذوا في هذا مذهباً عماده حيوان الصحراء الهائم في الجبال، وأنهم يضربون به المثل في حقيقة إدراك الموت لكل مخلوق فوق المعمورة، والصورة عندهم أن هذا الحيوان يعيش في مأمن بعيد عن كل أذى حتى يسوق له الله طريدة ليهنأ بها ثم يدركه الموت ساعة أجله، لكن هنا تبقى الصورة عامة لا تقتصر على شعر الهذليين وحسب وإنما لها بوادرها في الشعر الجاهلي أيضاً.

ثم استحضر الكاتب نصا لابن دريد يرويهِ عن الأصمعي، فكان ملخص القول أن الفن القصصي في الشعر كان قد بدأ مع امرؤ القيس وأن امرؤ كان أول من اصطنع فن القصة في الشعر العربي الجاهلي ذلك أنه كان يحتك ببعض من الصعاليك ولربما كان لهم.

يقول الكاتب أنه يخالف رأي بن دريد وانه مما لا ريب فيه أن النقاد قديما ضلوا الطريق إلى بعض المسائل الفنية، منها أثر الصعاليك في شعر امرؤ القيس، ذلك أن امرؤ القيس كان في فترة شبابه يتبع الصعاليك وليس بالبعيد عن ذائقته أن تتأثر بهذا الفن خاصة أنها في سن مبكرة جدا، وليس بعيدا أن يكون قد حاول تقليدهم والمشي على خطاهم وهو يستمع إلى قصصهم، إذن يمكن القول أن امرؤ القيس ليس أول من جاء بهذا الفن، ويبقى الشعراء الصعاليك أول من كتب في هذا الفن حتى أنهم أصبحوا رواد القصة الشعرية في الشعر العربي.

ز_ الواقعية:

ظاهرة سابعة يعرفنا عليها الكاتب هي الواقعية، ومفهوم الواقعية في شعر التصعلك هي تطبيق الواقع المعاش كمادة حية في النص بعيدا عن الخيال الذي يجعل الشاعر يعيش في الأوهام، والظواهر التي درسها الكاتب توضح ذلك جليا، حيث سعى الشاعر الصعلوك إلى تصوير بيئته وحياته بقسوتها ووحشتها حسننها وسوئها بمروءتها وكرمها وعطفها على الفقير بعيدا عن أي تكلف أو خيال، إلى جانب ذلك يظهر الحرص على وصف الصورة بكل تفاصيلها حتى يجعل المتلقي يعود ليعيش تلك القصص والأحداث، ولم يهمل الشاعر في ذلك أدق التفاصيل فنجد في

تصوير الأعم للضباع حرصا قويا على أدق تفصيل فيها، فلا ينسى حين يصف الجراء أن يذكر انتفاخ بطونها وقصر قوائمها وسواد جلدها وغير ذلك من التفاصيل الصغيرة وهنا يبدو أن الشاعر حريص على وصف اللون أيضا وليس التفاصيل الملموسة فقط، "وكأن الشاعر كان يسعى كل السعي لتحقيق هذا الغرض، حتى إننا قد لا نجد في قصيدة على طولها أي هدف غير وصف مشاهد الصحراء ... وليس من داع لهذا الوصف الرائع غير حب الصعاليك للصحراء وتآلفهم معها وحرصهم على نقل مشاهدتها"¹، ثم نجد أن الشاعر الصعلوك صريح في تصويره للواقع فهو يحاول رسمه دون أية مواربة أو تحريف أو تزييف.

وقد عرف الوصف في أشعار الجاهليين ممتزجا مع عديد الأغراض "باستثناء الشعراء الصعاليك ... خرجوا عن منهجية القصيدة الشعرية... بحيث نجد قصيدة أو بعض القصائد قد بنيت على موضوع الوصف، وهي في الغالب تندرج تحت المقطوعات القصيرة"²

وإذا أضفنا مظهرها آخر للواقعية في شعر الصعاليك فإننا نجد الدقة في التعبير تلك الدقة التي تحدد العبارات تحديدا واضحا لا غموض فيه، ومن أمثلة ذلك وصف الشنفرى خروجه مع أصحابه في إحدى الغزوات و تحديده للمكان جغرافيا دقيقا، مظهر آخر من مظاهر الواقعية هو ظهور الخبرة العملية في فنهم، مما يجعل القارئ يتوهم أنه يقف أمام إنسان يعيش في الحياة العملية

¹ الخصائص الأسلوبية في شعر الصعاليك "الشنفرى أنموذجا"، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب العربي، تقدم الطالب حرشاوي جمال، إشراف الأستاذ بوقرية الشيخ عن جامعة أحمد بن بلة وهران، السنة الجامعية 2015، 2016، ص، 83.

² المصدر نفسه ص 66، 67.

لا شاعر يعيش في الخيال والأوهام، حتى أنه يمكن أن يعتبر شعر التصعلك مصدرا من مصادر دراسة حيوان الصحراء لما يدققه الشعراء من وصف، والغريب أن يقرن الشاعر وصف الضباع بالمولوت فالشنفري يتحدث عن الوليمة التي يعدها للضباع بعد موته، وتأبط شرا والأعلم يخافان أن تلقى أجسادهم للضباع، والمعروف عن الضباع أنها مولعة بنبش القبور لكثرة شهوتها للحوم بني آدم، حتى أن الجاحظ إذا تحدث عن الضباع وولوعها بنبش القبور يستشهد بأبيات للشنفري الذي يبشر فيها الضباع بجسده بعد أن يموت، لكن ينسب الأبيات لتأبط شرا.

لو أننا نقارن ما وصل إليه العلم التجريبي الحديث من نتائج بما وصل إليه الشاعر الصعلوك من نتائج فإن المقارنة مجحفة في حق الشاعر الصعلوك، ذلك أنه وصف ما رآته عينه وما اكتسبه من خلال حياة الهروب في الصحراء.

ح- السرعة الفنية:

يقول الكاتب أن الشاعر الصعلوك يعيش حياة اضطراب وهروب دائمين ولا بد لهذا الهروب أن يظهر ويتجسم خلال شعره، وهذا ما كان فعلا، فقد اتسم شعر التصعلك بالسرعة الفنية وكانت هذه الأخيرة صدى نفسيا لتلك السرعة التي تميزت بها حياتهم، لكن في المقابل يستثني شعر عروة إذ يقول أن شعر هذا الأخير أبطأ وأكثر أناة ويضع فرضية أن عروة لم يكن من العدائين سببا لذلك الهدوء في شعره، ومن مظاهر هذه الصورة في شعر التصعلك انتشار المقطوعات القصيرة والتخلص من المقدمات الطللية والتصريح، هذا من الجانب الخارجي للبناء الفني للنص، أما من

الجانب الداخلي لبناء النص وربما أقوى ما سيلاحظه المتصفح هو خفوت الصنعة الفنية للنص، بحيث لا يظهر أي اثر للتجويد الفني المتمهل، وكل ما سيحده هو إلقاء صريح وسريع للمشاعر دون أي تنميق أو زحرفة، فهل للشاعر وقت ليمهل في عمله الفني ويتأني فيه؟.

ولنأخذ على سبيل المثال السليك بن سلكة هل مثل هذا الشاعر أن يتأني في شعره ويحمل وينمق ما يمكن تنميقة؟ البيتان التاليان سيوضحان الصورة بشكل اقرب:

يا صاحيَّ ألا لا حيُّ بالوادي *** إلا عبيد وآمَّ بين أذواد

أتظنَّان قليلا ريت غفلتهم *** أم تعدوان فإن الريح للعادي.¹

هل يستطيع من هو في مثل هذه الحياة أن يترث ليكتب وينمق! لربما الغرض من البيتان هو إيصال رسالة ليفهمها الصاحبين ليس إلأ.

ومنه نصل إلى فكرة جوهرية هي: الشعر عند الصعاليك لم يكن حرفة تقصد لذاتها يقوم خلالها الشاعر بالدخول إلى حلبة النزاع الفني ليقول لغيره من الشعراء ها أنا ذا، بل كان وسيلة لتسجيل مفاخرهم ووسيلة للإفصاح عن عقد نفسية أصابتهم من طول الهروب، ولم يكن القصد منها إقناع القبيلة بمذهبهم لأنهم يؤمنوا أن تفكيرهم شاذ لا تقبله القبيلة، ولو أرادوا لكان أقل ما يمكن أن يأتيهم من الشعر كسب للمال والشهرة بين أقرانهم من شعراء القبيلة.

¹الشعراء الصعاليك: مصدر سابق: ص292.

التشبيه كان أقوى لون في شعر التصعلك ذلك أن التشبيه لون يتناسب مع السرعة التي تحدثنا عنها سابقا، ثم أن الصنعة الفنية في التشبيه صنعة سريعة لا تتجاوز حدود الموازنة، بمعنى آخر العملية الفنية في التشبيه بسيطة من درجة واحدة على غرار الاستعارات.

وحيث الوقوف عند شعر الصعاليك نتبين أنهم استخدموا عدة عناصر في تأليف هذا اللون، فقد استطاع الشاعر الصعلوك أن يرسم لوحة تعكس البيئة التي كتب فيها النص أي أنه لم يتكلف في البحث عن الصور إنما رسمها مطابقة لواقعه، وقد استعار مجموعة من الأصباغ من مصادر مختلفة ويمكن حصر هذه الأصباغ في ثلاثة منابع هي:

١_ عالم الحيوان وهو من اغرز المنابع التي اعتمدها الشاعر في تشبيهاته، حيث استغل حيوان الصحراء بوحشته واستمد جزء من صفاته لينسبها لنفسه كسرعة العدو والقوة والصبر وغيرها من الصفات، كقول الشنفرى:

أنا السمع الأزل فلا أبالي *** ولو صعبت شناخيب العقاب.¹

وتشبيه بن حدادية لقومه بالضراغم فيقول معيرا اعداءهم بالهزيمة:

غداة توليتم وأدبر جمعكم *** رأينا بأسراكم كأننا ضراغم

¹المصدر السابق: ص295.

٢_عالم الانسان وقد استمد الشاعر من الطبيعة الانسانية قد نصنف ذلك في أربعة مظاهر

كالتالي:

* الحياة الاجتماعية

* الحياة الاقتصادية

* الحياة الجسدية

* الحياة النفسية .

ولعل أهم تصوير للصعاليك بهذه المظاهر هو تصوير التأثر بالحياة التي كانت تدور حولهم أو يدورون فيها.

ومنه تشبيه الأعلم لجلود جراء الضباع بلباس الرهبان فيقول:

سودٍ سحالييلٍ كأن *** جلودهن ثياب راهب.

ثم صورة البرق كالعائد من الحرب بعد انتصار يلوح بترسه في كفه ليعلم أصحابه بالنصر، فيقول

صخر الغي:

أرقت له مثل لمع البشير *** يقلب بالكف قرضا خفيفا.

٣_ البيئة الطبيعية وهذا المورد أقل الموارد في شعر الصعاليك ولا بد أن هذا راجع لانشغال الشاعر

الصعلوك بحياته والكفاح من أجل البقاء عن التأمل في الطبيعة.

ومن الأمثلة التي وردت عن الشعراء في هذا المظهر نجد قول عمر ذي الكلب يصف بيض

السهم ويشبها بشوك شجل السيال فيقول:

إذا ما هبطنا متهلا في مخوفة *** بعثنا ريئنا في المراني كالجدل.

ثم وصف عروة لصوت الأسد بتشبيهه بصوت الرعد فيقول:

كأن خواة الرعد رزَّ زئيره *** من اللاه يسكن بعثرا

ثم وصف الشنفرى لطيب رائحة صاحبه فشبهها بريحانة تملأ البيت عطرا فقال:

فبتنا كأن البيت حُجر فوقنا *** بريحانة رِيحَتْ عشاء وطُلت

بريحانة من بطن حَلِيَّةٍ نُورَتْ *** له أرْحُ، ما حولها غير مسنِت¹.

كان هذا تلخيص موجز لكيفية استغلال الشعراء للمنابع الثلاث في أشعارهم.

¹المصدر السابق: ص 307.

ط_ آثار من الصنعة المتأنية:

يقول الكاتب إذا كان لون التشبيه أقوى الألوان التي اعتمدها الصعلوك في شعره لتوافقها مع الصنعة الفنية فإنه قد لاحظ أيضا لونا من الصنعة اللفظية المتمهلة، ثم أخذ أبياتا لتأبط شرا قصد استخراج هذه الخاصية في شعره، سجل تأبط خلال تلك الأبيات نجاته من لحيان الذين حاصروه وهو في غار لهم، وهي قطعة يظهر فيها أن الشاعر تفرغ لصنعته الفنية، ويظهر خلالها أيضا أن الشاعر استعمل عثله ليصنع أبياتا من الحكمة.

ثم يضيف أبياتا أخرى ليستشهد بها، يقول تأبط:

فذاك قريع الدهر ما عاش حول *** إذا سد منه منخر جاش منخر

أقول للحيان وقد صقرت لهم *** وطائى، ويومي ضيق الجحر معور

هما خطتا إما إصاراً ومنة *** والقتل بالحر أجدر.

في الأبيات يجسم الشاعر الدهر فيجعله جبارا لا يزال يقرع المر بنوائبه، حتى يصيره مجرما بصيرا حازما، ثم يمضي الشاعر في أبياته مستخدما لونا من المطابقة بين "مورد ومصدر" لكن يبدو أنها مألوفة لدى شعراء الجاهلية، ثم ينتقل ليستعمل ما هو أقوى وأعمق من ألوان الصنعة الفنية لرسم لوحته فيستعمل الاستعارة.

هذه الألوان المتهمة من الصنعة الفنية تترد من حين لآخر داخل أشعار الصعاليك فالمنية عند أبي الطمحان ناقة يسوقها دليل بارع لا يضل، لكن أبي طمحان لا يرسم الصورة بهذا الوضوح، إنما يتحايل قليلا ويستعمل بعض "التظليل" لإخفاء جوانبها إخفاء فنيا. ثم صديق تأبط شرا إذا غرز السيف في لحم العدا ضحك الموت سرورا بما حصل عليه من أرواح، فيقول:

إذا هزه في عظم قرن تهلت *** نواجد أفواه المنايا الضواحك.¹

العملية الفنية هنا عملية فنية مركبة تقوم على إستعارتان:

الأولى: في لفظة (تهلت) وهنا يشبه لمعة الاسنان بلمعان البرق، والثانية: تشبيه الموت بالشخص الضاحك.

إن أحكام الاسلام عند أبي الخراش قيود وسلاسل تطوق أعناق الصعاليك الذين أسلموا لكن يقولها بأدب ويخفي تعبيره بمهارة فائقة، فيقول:

فليس كعهد الدار يا أم مالك *** ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل.

وإلى جانب هذه الصنعة الفنية يظهر أثر بسيط لصنعة فنية بسيطة زاهية هي الصنعة البديعية، ونجد في شعر بن الطمحان ضالّة من الأمثلة حيث يقول:

¹المصدر السابق: ص309.

نمت بك من بني شمش زياد *** لها ما شئت من فرع وأصل.

ونجد هنا طباقا لفضيا تبدو عليه الصيغى العقلية والمتمثل في لفظتي (فرع وأصل)، وليس الطباق

اللون البدي عي البادي في شعر التصعلك بل نجد الجناس كما في بيت الأعم:

وقدح يخور حوار الغزا *** ل ركبت فيه نحيفا نحيفا.

الشيء الذي لا شك فيه هو أن الشاعر الصعلوك لم يقصد إلى هذه الألوان قصدا بل جاءت

عفوا منهم، ذلك أن هذه الألوان التي ظهرت على شعر التصعلك هي أكثر قوة ومثانة في الشعر

الجاهلي والشاعر الصعلوك لا يملك العق لينمق ويدقق في شعره كما شعراء الجاهلية.

ي_ الخصائص اللغوية:

يقول الكاتب أن المتصفح لأشعار الصعاليك سيواجه تلك اللغة القديمة الجاهلية القوية، وهذا

أمر طبيعي لأنها لغة ذلك العصر.

"والسبب في ذلك يرجع إلى عزلتهم في الصحراء وعدم اتصالحهم بغيرهم مما أبقى لغتهم على

حالتها دون تهذيب أو تعديل ففي لغتهم خشونة كحياتهم وصعوبة كعيشتهم المقفرة في الصحراء".¹

ثم حتى لو خرج الشاعر عن القبيلة وثار على كل شيء لن يثور على لغته لأنه لن يكون قادرا

على ذلك أساسا، وتبقى هي الرابط الوحيد والوسيلة الوحيدة للتفاهم بينهم وبين قبائلهم، وتبقى

¹عبد الرحمان عبد الحميد علي: تاريخ الأدب في العصر الجاهلي، دار الكتب الحديثة، د ط، 2002 ص261.

العملة الوحيدة للتعامل الفكري بين الطرفين، لكن ما لا يجب أن نغفل عنه هو أن خروج الشاعر عن القبيلة قد يجرف معه انفصال في الجانب الأدبي أي أن الشاعر في هذه الحالة لن يكون في اتصال دائم بالمجتمع الأدبي أو بصيغة أخرى المجتمع الأدبي لم يكن في صلة دائمة به.

ونتيجة هذا من الناحية اللغوية أمران:

الأول أن لغة شعراء التصعلك أقرب إلى الفطرة، وأصدق تمثيلاً، ذلك أنها صادرة من منبعها الأول دون أن تلحن أو تنحرف جراء الاختلاط الاجتماعي، لا ننكر أن لغة الجاهلية لغة قوية لكن تبقى لغة الصعاليك أقرب للفطرة وأصدق تمثيلاً، لهذا نجد للشعراء الصعاليك قاموساً خاصاً بهم أو بعبارة أخرى إن شعر التصعلك يعتبر من المصادر الأساسية للمجموعة اللغوية.

أما الأمر الثاني فهو كثرة غريب اللفظ في شعر التصعلك، حتى يتبادر للناظر أنه يقف أمام طلاس لفظية، كما هو في هذه الأبيات لتأبط:

وحششت مشعرف النجاء كأني *** هجف رأى قصراً سمالاً وداجنا

من الحُصِّ هُزْرُوفٌ كأن عفاءه *** إذا استدرج الفيفا ومد المغابنا

أزج زلوج أو هذرفي زفافزف *** هزف بيد الناجيات الصوافنا.

إن المتأمل في هذه الأبيات سيعود حتماً إلى المعاجم القديمة جداً ليشرح ما فيها من غريب اللفظ وإلا بقيت مبهمة لديه.

يلق غازي ضليقات على لغة تأبط شرا فيقول: " يتسم شعره بغرابة اللفظ واستخدام صيغ قديمة تجاوزها شعراء زمانهم مثل: هيد مالك والذ بمعنى الذي والتفراق بمعنى الفراق التهباد بمعنى أكل الهيد وهو أكل الحنظل، كما أن هناك شهادة لأبي العلاء أن تأبط كان أغرب الصعاليك لغة"¹

لعل عروة بن الورد أقل الشعراء الصعاليك إغرابا في الألفاظ، "فشعر عروة حلو سائغ وهو إلى حالوته متين القافية رصين التركيب فيه نصيب من التصوير وفيه حركة وحياة"².

وهذا لأنه كان يقوم في حركة الصعلكة بدور الزعيم الشعبي الذي يدعو إلى اعتناق مذهبه، فكان يتبسط في اللفظ ليتيسر الفهم على جماهيره هذا من ناحية أما من الناحية الأخرى فإن عروة لم يكن بالصعلوك الذي اعتزل مجتمعه بل كان غير جماعته من الصعاليك فكان دائم الاتصال به والعمل لأجله، ومن هنا خلقت لغته من تلك الوحشية البادية في أشعار غيره من الصعاليك خاصة عند الشنفرى وتأبط.

ك_ ظواهر عروضية:

في هذا العنوان خصَّ الكاتب الظواهر العروضية في شعر التصعلك بالشرح، والملاحظ أنه رغم خروج الشاعر عن القبيلة والثورة على نظامها إلا أنه بقي في اتصال معها من الناحية الإبداعية أو

¹ غازي ضليقات الأدب الجاهلي قضاياها أعلامه أغراضه، فنونه، ص، 596، 597.

² المصدر نفسه، ص، 586.

العروضية، فالشاعر الصعلوك بقي يسير على خطى قبيلته في مجال كتابة الشعر فحافظ على الأوزان كما هي، وكتب في البحور التي طالما كتب فيها أهل عشيرته من قبائل الجاهلية، كبحر الطويل والوافر والبسيط والكامل والمتقارب، كما أن الشاعر لم يحافظ على الأوزان وحسب بل حافظ حتى على موضع الزحافات التي ورثها عن بني قبيلته، والملاحظ أن الشاعر حافظ على موضع الزحاف في بحر الطويل في التفعيلة "مفاعيلن" وهو حذف "يائها" و في التفعيلة "فعولن" بحذف "نونها" وتحول التفعيلتين إلى "مفاعلن" و "فعولن"، وهو ما يسميه العروضيون القبض.

وفي مثل ذلك أبيات تأبط شرا إذ يقول:

تقول تركت صاحباً لك ضائعاً *** وجئت إلينا فارقاً متباطناً

إذا ما تركت صاحبي لثلاثة *** أو اثنين مثلينا فلا أبت آمناً.

وقول الشنفرى:

فوا كيدا على أميمة بعدما *** طمعت فهبها نعمة لعيش زلت.

والأمثلة من مثل هذه كثيرة لانتشارها الواسع في أشعار الصعاليك.

كما نلاحظ انتشار تلك العلة الجارية مجرى الزحاف في شعر الصعاليك وهي إسقاط أول وتد مجموع في التفعيلة "فعولن" لتتحول إلى "فعلن" وهو ما يسميه العروضيون 'الحزم' ومن مثل ذلك قول حاجز:

إن تذكرو يوم القرى فإنه *** بواء بأيام كثير عديدها.

وقول الشنفرى:

لا تقبروني فإن قبري محرم *** عليكم ولكن أبشري أم عامر.

وهي ظاهرة واسعة الانتشار في شعر التصعلك كانتشارها في أشعار الجاهليين.

ثم يقول الكاتب أن هناك ظاهرة عروضية تلفت النظر لا يجب الغفلة عنها هي انتشار الرجز في

أشعار الصعاليك قبيل مصارعهم.

ولسنا نرى في ذلك شيء من الغرابة ذلك أن الرجز كان سبق الارتباط بالوزن في أشعار

الجاهليين حتى أن الباحثين ردوا أول ظهور للشعر العربي إلى الوزن والرجز على وجه الخصوص،

وقد نقل القرشي عن محمد بن إسحاق قال: "قدم قبس بن عاصم التميمي عن النبي _ صلى الله

عليه وسلم _ فقال يوما وهو عنده: يا رسول الله أتعلم من أول من رجز؟ قال: لا قال: أبوك

مضر، كان يسوق بأهله ليلا، فضرب يد عبد له، فصاح: وأيداه، فاستوثقت الإبل ونزلت، فرجز

على ذلك"¹

¹ القرشي: جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، تحقيق محمد علي البحاوي، القاهرة 1967، ص، 27.

وعليه ف "إن الرجز من البحور القديمة في الشعر العربي، فقد كان يستخدم بكثرة في الشعر الجاهلي، وهي كثرة تؤكد أنه كان الوزن الشعبي العام الذي يدور على كل لسان"¹

ولعل الشاعر الصعلوك استعمل الرجز لسهولته وتوافقه مع حركة القتال، وقد لقي أغلب الشعراء حتفهم خلال هذه الصراعات وسقطوا شهداء لأفكارهم التي عاشوا لأجلها.

كما يلاحظ الباحث أن أغلب شعر الصعاليك الذي قيل قبيل سقوطهم شهداء كان رجزاً، فقيس بن حدادية قاتل أعداءه وهو يرتجز، والشنفرى يضرب أعداءه يده فيقطعونها فيرثيها رجزاً.

مع ذلك فإن لعمر ذي الكلب أرجوزة طويلة يقص فيها قصة طريفة، هي غارة ذئب فاتك على غنمه ثم يرميه بسهمه فيلقي به جثة ويختتم القصة في الأخير بتشبيهه الحادثة بالصراع القائم بين طبقة الصعاليك المظلومة والطبقة الرأسمالية الظالمة، لينتصر الصعاليك في نهاية هذا الصراع.

¹ شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، دار المعارف القاهرة؛ ص 395.

4_ الفصل الرابع: شخصيتان متميزتان:

أ_ تشابه وتميز:

استهل الكاتب هذا العنوان بملاحظات كان قد سجلها عن أشعار الصعاليك والتي تمثلت في أن الصعاليك العرب سلكوا أسلوبا واحدا في الحياة، أسلوب استطاعوا من خلاله أن يرفعوا عن كاهلهم ما ألقته عليهم الحياة من ضيم وهوان، وقد جعل له عنوان (الغزو والإغارة للسلب والنهب).

ثم أن شعراء العرب بطبقاتهم من صعاليك جميعا تخلصوا من العصبية القبلية وشقوا طريقهم في الحياة دون قيود مجتمعاتهم وقبائلهم، حتى أولئك الذين بقوا متصلين بها، وأن سبب هذه الحياة هو الإحساس النابع من عمق الشاعر بأنه مهضوم الحق ومستضعف في الأرض، فأتجه إلى التمرد.

ليس من الطبيعي أن تتشابه شخصيات الشعراء الصعاليك فقط لتشابه الفكرة المذهبية التي آمنوا بها جميعا واستعاضوا بها عن العصبية القبلية، "ومن الطبيعي أن يكون تمايز في الشخصيات بينهم، ذلك أن أساس فكر التصعلك يعود إلى قوة الفرد وقوة وقوفه أمام الجمع، ومن الطبيعي أيضا أن يختلف الفرد في وجهة نظره لهذا المذهب الذي اتخذوه"¹، ونستطيع أن نلاحظ بسهولة شخصيتين متميزتين ترد إليهما جماعة الصعاليك، فهناك تلك الشخصية المتمردة التي استغلت الفرصة لإظهار قوتها وبطولتها الفردية، واستغلالها في إرضاء نزعتها الشريرة، شخصية رأت في

¹الشعراء الصعاليك: مصدر سابق: ص320 بتصرف.

تمردها وسيلة وغاية، في المقابل نجد تلك الشخصية التي وجدت في تمردها وسيلة لغاية إنسانية هي رفع الظلم عن المظلومين وحماية المستضعفين.

وحين النظر في شخصيات الصعاليك العرب الذين يمثلون هذه الشخصية الأخرى نجد عروة بن الورد الذي أخذ على عاتقه عهد تحقيق العدالة ونصرة المظلومين وتحقيق التوازن الاقتصادي، حيث أخذ من شعره وسيلة للدعاية إلى مذهبه، أما الشخصية الأولى فإن أفرادها أكثر من أن يحصوا، لأنها تحمل طائفة من المتمردين من فتيان المجتمع الجاهلي، ولعل الشنفرى من أصلح الشخصيات تمثيلا لهذه الطائفة ذلك لإمعانه في التمرد والشر، حتى أن التاريخ يذكر أنه أقسم على نفسه أن يقتل مائة من بني سلامان بسبب لطمه لطمها إياه أحد فتيانها، ولعله أيضا من أصلح ممثلي هذه الشخصية للدراسة الفنية للشعراء الصعاليك ذلك لوجود ديوان يقابل ديوان عروة بن الورد في الدراسة.

ب_ عروة بن الورد:

يعود نسب عروة بن الورد إلى قبيلة عبس، فهو عروة بن الورد بن زيد بن عبد الله بن ناشب بن هريم بن لديم بن عود بن غالب بن قطيمة بن عبس، يحمل شرف اللقب لأنه بن عبس لكن اسم أباه كانت تتشائم به لأنه من أوقع عبس في الحرب مع فزارة بمراهنة حذيفة، أما أمه فيذكر عروة أنها من نهد من قضاة، لكن ما يميز شعر عروة أنه دائما ما يسخط على صلة أبيه بأمه، حتى أنه

يهجو أحواله مر هجاء، قيل أن سبب هذا أن قبيلة نهد كانت أقل شرفا من عبس لهذا كان عروة يشعر بالعار اتجاهها ونسب شر شعره لهذه القبيلة.

هذا النسب والتشاؤم الذي لازم اسم أبيه وضعاه بين الرحي منذ صغره، ثم إنه كان لعروة أخ أكبر وكان أبوه يؤثره عليه رغم غناه ويهمل عروة رغم حاجته، فتربى عروة على الشعور بالظلم لما أصابه من إهمال أبيه له.

نما شعور الظلم داخله وتمت فلسفته الاجتماعية في نظرة إلى الطبقة التي يعيش فيها الفقير والغني، حتى قوي هوده ليتبنى الفكرة ويدافع عنها ويدعو إليها من خلال شعره، "ومن الطبيعي أن يجد شعره آذانا صاغية وتجذ فكرته الطريق وبصفة خاصة عند الفقراء المستضعفين الذين أجدهم الفقر وأهزلهم الجوع"¹.

عرف الصعاليك في عروة تلك النفس الإنسانية، فكانوا إذا أصابتهم السنة أتوه فجلسوا أمام بيته فإذا أبصروه قالوا: يا أبا الصعاليك أغثنا فيخرج ليغزو بهم، ولم يكن يؤثر نفسه على صعاليكه فقد كان فقيرا مثلهم، حتى أنه في غارة له أصاب مائة من الإبل فقسّمها على أصحابه من الصعاليك وأخذ مثل نصيب أحدهم.

وهو إلى جانب هذه الزعامة الحكيمة قائد جيد يخرج بقومه ويرسم لهم الخطط الذكية فما خرج بهم إلا وأصابهم خيرا وفيرا، ومن مظاهر هذه القيادة الحذر، فقد كان أحرص القياد على

¹المصدر السابق: ص324.

جيوشه حتى أنه إذا أراد إغارة منطقة فيها خوف ومخاطر فإنه يرسل أحد صعاليكه ليراقب له الطريق من مكان عال وينشغل الباقي بالأعمال الأخرى.

تمركزت حركات الإغارة عند عروة في المناطق الشمالية للجزيرة العربية حول يثرب وكانت تمتد أحيانا إلى منطقة نجد، فنشأت علاقات اقتصادية مع بني النضير الذين كانوا ينزلون هناك فكانوا يقرضونه أحيانا ويبيعهم إذا غنم، هكذا كانت حياة عروة تعتمد على السلب والنهب من الأغنياء ليوزعها على الفقراء، كانت لعروة فلسفته الخاصة فلسفة قائمة على الإغارة والسلب والنهب فهو يقول أن الغزو والإغارة هما السبيل الوحيد لمن هو في مثل حالته.

يقول عروة:

ومن يك مثلي ذا عيال ومقترا*** من المال يطرح نفسه كل مطرح

وما صاحب الحاجات من كل وجهة*** من الناس إلا من أجد وشمرا.¹

وعليه فإن بعد كل إغارة لا يحصل إلا ثلاث احتمالات الأول: نجاح الغزوة فيأخذ خلالها نصيبا من المال يكفيه ليعيش لأيام دون حوج، وأما الثاني: فإخفاق الغزوة وتذهب معها مجموعة الأحلام، وأما الثالث: فالموت والذي هو أهون لهم من حياة الجوع والفقر والذل.

¹المصدر السابق: ص326.

لقيت دعوة عروة إعجابا بالغا من المجتمع وظلت أصداؤه مدوية حتى بعد ظهور الإسلام، ولعل أهم ما ميز شعر عروة هو أنه شعر شعبي فهو شعر سهل الحفظ مقارنة مع غيره من الصعاليك، ثم أنه أكثر الشعراء استعمالا لمقدمات الفروسية في شعر الصعاليك، كما عرف عروة باحترامه للنساء وما ذكره رواة التاريخ عنه أنه لا يمس النساء.

جـ_ الشنفرى:

قلنا في السابق أن حركة التصعلك انقسمت إلى قسمين قسم شرير وجد في الحركة غاية ووسيلة وقسم اعتمد على الحركة كغاية لرفع الظلم عن المستضعفين، وبما أن عروة بن الورد مثل الجانب الإنساني في القضية لا بد أن الشنفرى مثل الجانب الشيطاني من القضية.

اسم الشنفرى ولقبه ونسبه نشأته الأولى غامضة، كل ما يعرف عنه أنه الشنفرى وأنه من الأوس بن حجر، بن الأزد، وما يذكر عن أهله أن أباه كان ذا موضع من أهله لكنه كان في قلة وكانت أمه سبية.

ما يضع العقل في الكف هو تلك التصريحات في شعر الشنفرى، فمرة يصرح أنه هجين ومرة أخرى يمدح أمه فيقول أنها بنت الأحرار، كيف يتفق التصريحان في ظل هذا التناقض الكبير!، يبقى نسب الشنفرى في غموض والواقع أن أخبار الشنفرى كلها في قلة وغموض.

"يرى Frenzel أنه من المحتمل أن تكون أم الشنفرى مولودة من أب حر بينما أمها أمة، وبهذا يكون الشنفرى من الفئة التي يطلق عليها اسم Quarteron في الولايات المتحدة، لكن يبقى هذا الرأي فرضيا"¹.

يرى الكاتب أن الاحتمال السابق شديد التعقيد وأن المسألة أيسر من هذا، فهو يرى أن الأبيات قيلت في وضع حساس للشنفرى ألقى بالأبيات جراء الاحتقار البادي من ابنة سيده المتعجرفة فحاطبها ليقول أن لعبة السيد والعبد اخترعها الإنسان ظلما وأن الله خلق الناس أحرار وحتى لو كانت أمه أمة فهذا لا يغير من الحقيقة الإلهية، فهي ابنة أحرار قبل كل شيء.

لفظ الشنفرى يحمل شيئا من أصل هذا الصعلوك، فكلمة الشنفرى تعني غليظ الشفتين وعلماء الأجناس ينسبون هذه الصفة إلى أصحاب البشرة السوداء، ومنه يبدو أن الشنفرى كان أسودا وابن أمة سوداء.

أما عن تصعلكه فهو غامض أيضا وتروى عن الحادثة ثلاث قصص، الأولى عن محمد بن هشام فيقول أن الشنفرى أسرته بنو شبابة فلم يزل فيهم حتى أسرت بنو سلامان رجلا من بنو شبابة ففدته بنو شبابة بالشنفرى، فكان الشنفرى في بنو سلامان ولا تحسبه إلا واحدا منهم حتى نازعته بنت الرجل الذي كان في حجره، حين قال يا أختي اغسلي رأسي، أنكرت أن يكون أختها

¹المصدر السابق: ص332.

ثم لطمته، فذهب مغتاضا إلى من اشتراه منهم وقال أصدقني القول ممن أنا؟! فقال من الأوس بن حجر، فأقسم أن يقتل مائة منهم لاستعباده.

أما الرواية الثانية فيرويها مجهول وقد كذب فيها، فيقول أن الأزد قتلت الحارث ابن السائب، فباء بقتله حرام بن جابر فلما ترعرع الشنفرى فيهم أصبح يغار معهم وأقسم أن يقتل مائة منه.

أما الرواية الثالثة فيرويها مجهول أيضا وهي مكذوبة فيقول أن بني سلمان سبت الشنفرى وهو غلام، فجعله الذي سباه في بئمة يرهاها مع ابنته، فلما خرج بها ذهب ليقبلها فصكت وجهه، ثم سعت إلى أبيها فأخبرته فخرج ليقبله، فوجده ينشد أبياتا يأسف فيها على أن هذه البنت لا تعرف نسبه فسأله ممن أنت؟ فقال الشنفرى أخو بني الحارث بن ربيعة، فقال لولا أنني أخاف أن يقتلني بنو سلامان لأنكحتك ابنتي فقال عليّ إن قتلوك لأقتلن منهم مائة رجل فأنكحه ابنته وخلقى سبيله، فشدت بنو سلامان خلافا مع الرجل فقتلوه، فأخذ الشنفرى يوفي بعهده.

يدور الجزء الأكبر من شعر الشنفرى حول الصراع بينه وبين بني سلامان والجزء الباقي حول التصعلك والفقر والظلم والتشرد، وقد سائر هذا الشعر الشنفرى منذ طفولته فهم يروون له أبياتا خاطب بها أمه بعد موت أبيه وأخيه وفي الأبيات من القوة التي توحى أنه سيكون الشنفرى الذي عرفناه.

حرص الشنفرى على تسجيل كل صراع قائم بينه وبين بني سلامان في شعره غاراته عليهم، تهديده لهم، تربصه بهم، واصفا في ذلك موقع القتال والأسلحة التي يستخدمها ويتحدث عن

رفقائه في الغارات أيضا، لم يحرص الشنفرى على أن يدفن، فلما أخذ أعداؤه يسألوه أين يدفنوه بعد أن يقتلوه أجاب بأبيات من الروائع فقال لا تدفنوني وإنما القوا بجثتي للضبع رفيقة تشردي، إلى جانب هذا سجل الشنفرى في شعره حياته وفقره وهزاله وحتى نعله الممزق وثيابه البالية وتشرده في الصحراء، ويوشك ما وصلنا من الشنفرى أن يدور كله في دائرة التصعلك لكن ما يؤسف أننا لو حذفنا لاميته الشهيرة والتي رجح أن تكون لغيره وتائيته المفضلية، فإننا لا نجد سوى مجموعة قليلة من المقطوعات القصيرة.

وما يميز شعر الشنفرى أيضا تلك الخشونة اللفظية التي تمثل اللغة البدوية، وذلك الإحكام في الأسلوب، هذا إلى جانب صدقه في التصوير والصراحة في النقل عن الحياة.¹

¹المصدر السابق: ص335.

نقد و تقریر

نقد وتقويم:

من خلال دراستنا للكتاب ظهر لنا أن عنوانه متطابق إلى حد بعيد جدا مع منته إذ أن الكاتب درس كل الجوانب المحيطة بالعصر الجاهلي بدءا بجغرافيته ومدى تأثيرها على توزيع ظاهرة الصعلكة في الصحراء العربية ثم دراسة الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وتأثيرها على العقلية العربية التي أدت لظهور ذلك التمرد الاجتماعي لكثير من الأشخاص على النظام العام للقبائل العربية في ذلك الوقت فأطلق على هؤلاء مجموعة الصعاليك الذين تميزوا بشعر خاص بهم مختلف عن بقية الشعر العربي في العصر الجاهلي.

يعد هذا الكتاب من أهم مصادر التاريخ والنقد الأدبي التي عنيت بدراسة الصعاليك وشعرهم من كافة الجوانب إذ اعتمد على أبحاث الكتب والدواوين الشعرية في هذا المجال باستحضار المادة المعرفية المهمة والأساسية التي جعلته كتابا ذا قيمة كبيرة إذ ركز اهتمامه على شواهد شعرية ونقدية من أهم الدواوين وأصحها ومن أهم كتب النقد والتاريخ الأدبي والكثير من الدواوين والمنحوتات التي لم تعرف ولم يأخذ منها أحد من الدارسين قبل هذا الكتاب.

وقد أضاف هذا الكتاب إضافة نوعية ومهمة في الدراسات الأدبية العربية الحديثة في كافة الجوانب المعرفية إذ حاول الكاتب تفسير ظاهرة الصعلكة ودوافعها تفسيراً علمياً دقيقاً معتمداً في ذلك على علم النفس الاجتماعي والظروف المحيطة بحياة العرب في العصر الجاهلي، تلك الظروف القاسية سواء من الطبيعة القاسية التي عملت على تكوين الفرد العربي وعقليته أو الظروف البشرية المتمثلة في نظام الحكم القبلي الذي كان يميز بين الأفراد حيث قسمهم إلى طبقات متفاوتة في الواجبات والحقوق وهذا النظام كان جائراً على الكثيرين مما أدى إلى عدم قبول بعضهم بقوانينه فخرجوا عن تقاليد القبيلة وحاولوا تأسيس نظام آخر يضمن تساوي الحقوق بين كل أفرادها فكان ما يسمى بظاهرة الصعلكة.

وقد لقي هذا الكتاب القبول الكبير بين النقاد وأصبح مصدرا للدراسات النقدية الأدبية الحديثة لما حمله من مادة معرفية شاملة ومحيطة بحياة الصعاليك.

من خلال دراستنا لهذا الكتاب توصلنا إلى أنه كتاب شامل عني بدراسة الصعلكة والشعراء الصعاليك دراسة شاملة كاملة بدءا بجغرافيا الجزيرة العربية وتأثيرها في بروز ظاهرة الصعلكة ثم الأسباب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي أدت حتما إلى خروج الصعاليك عن نظام القبيلة العام وهذا الخروج أو التمرد عن النظام أدى إلى خروج عن تقاليد القصيد العربية أيضا لذلك كان لشعر الصعاليك نظام خاص به وظواهر فنية تميزه عن بقية الشعر الجاهلي.

خاتمة

خاتمة:

من خلال دراستنا لهذا الكتاب ظهر لنا أن موضوع الصعلكة شائك وعميق وعمق تفكير الشعراء الصعاليك في نظرهم إلى الحياة التي أرادوا أن تكون متساوية بين كل أفراد المجتمع محطة التفاوت بين البشر وهذا ما أدى بنا إلى الوصول للنتائج التالية:

- تفكير الشعراء الصعاليك في محاولتهم المساواة بين أفراد المجتمع أمر مناف للطبيعة البشرية.
 - خروج هؤلاء الصعاليك كان بسبب أزمات نفسية شخصية وظلم تعرضوا له داخل قبائلهم وهذا ما أراد الكاتب أن يبينه من خلال اعتماده في تفسيره لظاهرة الصعلكة على علم النفس الاجتماعي.
 - التمرد على قوانين القبيلة أدى إلى التمرد على تقاليد القصيدة العربية الجاهلية.
 - الأشكال الفنية الجديدة في شعر الصعاليك كانت لها إضافة جمالية كبيرة على القصيدة العربية.
- أدى بنا هذا البحث إلى ولوج عالم الصعلكة من خلال هذا الكتاب ومعرفة خبايا الكثير من الشعر الذي لم يعنى بالدراسة طيلة قرون.
- تم من خلال هذا البحث معرفة ما يمكن للأزمات إنتاجه في مجال الأدب و قد ظهر ذلك جليا في بحثنا هذا اذ كان ما نتجه الصعاليك تجديدا بآتمّ معنى الكلمة في تاريخ الشعر العربي في فترته الجاهلية و عد ثورة على شكل القصيدة العربية شكلا و مضمونا.

قائمة المصادر

والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

- أبوسعيد عبد الملك بن قريش الأصمعي، شرح الأصمعيات، تح: سعد ضناوي، دار العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2001.
- حسين مروة، تراثنا كيف نعرفه، مؤسسة الأبحاث العربية، ط1، بيروت 1985. -عبد الرحمن عبد الحميد علي، تاريخ الأدب في العصر الجاهلي، دار الكتب الحديثة، د ط، 2002.
- غازي ضليقات، عرفات الأشقر: الأدب الجاهلي: قضاياها، أغراضها، أعلامه وفنونه، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط1، 2010.
- القرشي: جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، تح: محمد علي البحاوي، القاهرة 1967.
- سامي يوسف أبو زيد، منذر ذيب كفاني: الأدب الجاهلي، دار المسيرة للنشر والتوزيع، ط1، 2011.

فهرس المحتويات

الصفحة	المحتويات
-	كلمة شكر
-	إهداء
-	بطاقة فنية
أ	مقدمة
05	مدخل
-	الفصل الأول: الشعراء الصعاليك ونشأة الصعلكة
07	تقديم وعرض
08	دراسة فصول الكتاب
17	التفسير الجغرافي لظاهرة الصعلكة
20	التفسير الاجتماعي لظاهرة الصعلكة
23	التفسير الاقتصادي لظاهرة الصعلكة
-	الفصل الثاني: شعر الصعاليك، موضوعاته وظواهره الفنية
27	شعر الصعاليك
32	موضوعات شعر الصعاليك
60	الظواهر الفنية في شعر الصعاليك
102	نقد وتقويم
105	خاتمة
-	قائمة المراجع
-	فهرس المحتويات